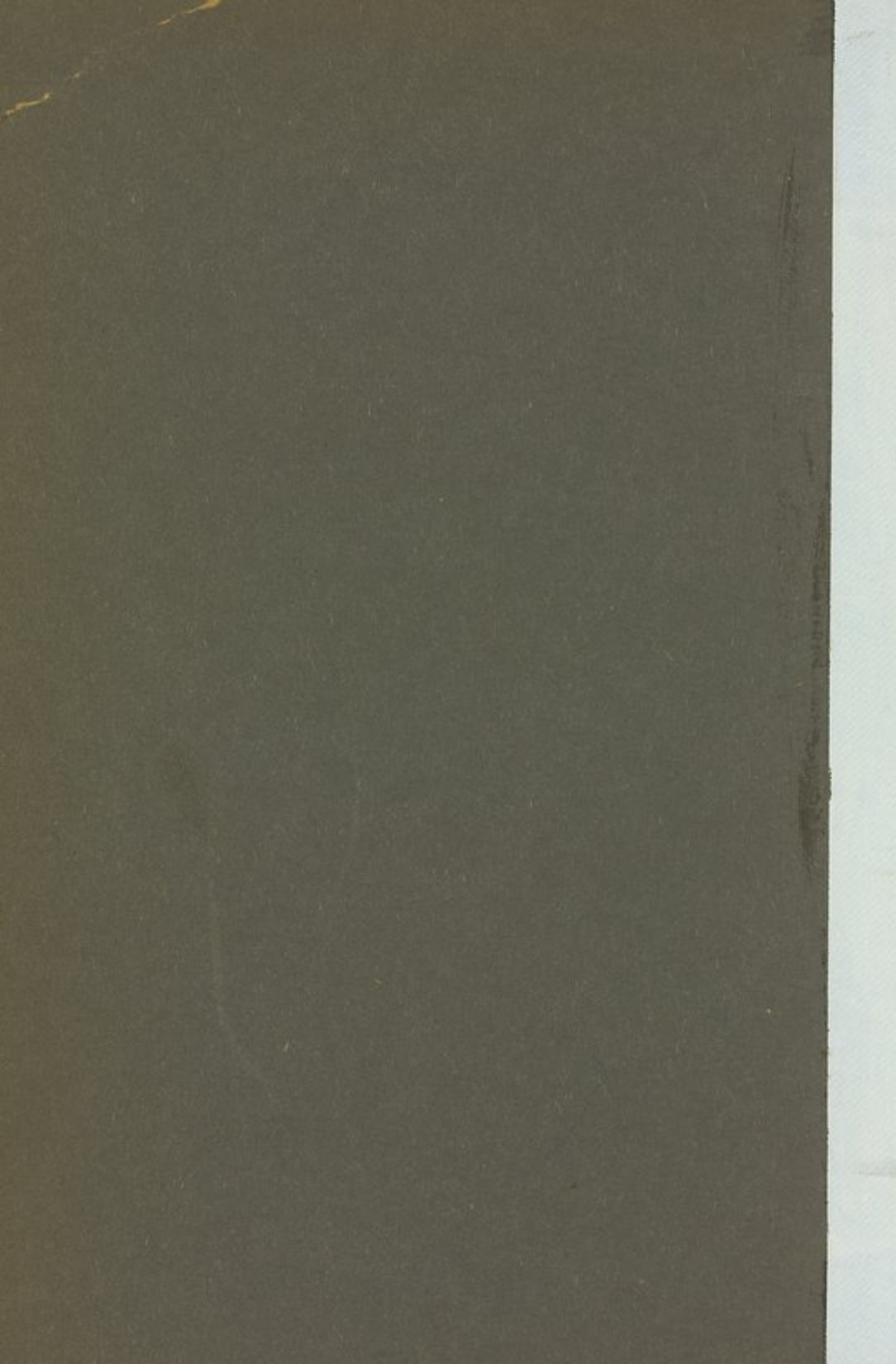


7-377

(NEC)
BP188
.9
.H355
1947



٤ — التصويب

صفحة	سطر	خطاً	صواب
٨	١٤	يأتيه	يأتيه
١٥	٠٨	إياهم	إياهم
٢٧	١٨	أعمال الجوارح بعض وبعض	بعض أعمال الجوارح وبعض
٣٠	٠٧	القنوسية	القنوسية
٣٢	١٥	المحفوظ	المحفوظة
٣٢	١٤	الهندسي	الهندي
٣٧	٠٣	والنفس	والنفس
٣٧	١٧	لى	إلى
٦٣	٠٢	ينقى	يتقى
٦٤	٠٢	قتى	فتى
٦٩	١١	فبلل	فبلغ
٧٥	٠٩	بلغ	بلغ
٧٩	٠٢	يهض	يهض
٨١	١٤	فيققون	فيققون
١٠٦	٠٩	فأستغفر	فأستغفر
١١١	٠٥	حرق	حرق
١١٨	٠٥	نخينئذ	نخينئذ
١٣٠	١٧	إلا بذكر	ألا بذكر
١٤٠	٠٨	فرات من	فرات بن
١٤١	٠٧	وسائر	وسائر
١٤٢	٠٧	لى	إلى
١٤٣	٠١	فأحيينا	فأحيينا

- | | |
|------------------------------------|--------------------------------|
| يحيى بن معاذ : ٦ . | نوح : ٦٦ - ٧٦ . |
| يحيى بن منصور : ٩ . | نيكولسون : ٢٣ . |
| يحيى بن موسى : ٩ . | الهجویری : ١٤ - ٢١ - ٢٣ - ٢٧ . |
| يزيد بن المهلب : ٤ . | هرتمان : Hartmann : ٥ . |
| يزيد بن هرون : ١١٣ . | هشام : ١١٣ . |
| يعقوب (عليه السلام) : ١٠٤ . | ونسك : Wensinck : ٥ . |
| يعقوب الدورق : ٩ . | وعب بن منبه : ١١٩ . |
| يوسف (عليه السلام) : ١٠٤ - ١٤٧ . | ياقوت : ٤ . |
| يوسف بن عطية : ٦٩ - ٧٠ - ١٢٧ . | |

٣ - فهرس المواضع

- | | |
|---------------------|--------------------------------|
| الري : ١٣ . | إستانبول : ١٣ - ١٤ - ١٥ - ٢٠ - |
| سرخس : ١٤ . | ٣١ - ٣٢ . |
| سمرقند : ٦ - ١٢٠ . | باريس : ١٣ - ١٤ . |
| الشام : ١١٩ . | برلين : ١٤ . |
| شغانيان : ٤ . | بكترا : ٧ . |
| الصغانيان : ٤ . | بلاد الصين : ٧ . |
| طور سيناء : ٧١ . | بلاد القرس : ٤ - ٧ . |
| العراق : ٩ . | بلاد الهند : ٧ . |
| القاهرة : ١٤ - ٣٤ . | بلغ : ٦ - ٧ - ١١ - ١٥ . |
| لندن : ٣١ - ٣٢ . | بوغ : ٥ . |
| ليزر ج : ١٣ - ١٤ . | بيروت : ٢٤ . |
| ليدن : ١٣ . | تركستان : ٥ - ١١ . |
| مانشستر : ١٣ . | ترمذ : ٣ - ٤ - ٥ - ٧ - ١١ - |
| ماوراء النهر : ٣ . | ١٥ . |
| المدينة : ٧٢ . | جيجون : ٣ - ٤ . |
| مرو : ٦ . | حمص : ١١٤ . |
| مصر : ٦ - ١١٩ . | ختلان : ٤ . |
| نيسابور : ٩ - ١١ . | خراسان : ٥ - ٦ - ٩ . |
| العين : ١١٦ . | دمشق : ١٣ . |

- ٩١ - ٩٦ - ١٠٠ - ١٠١ - ١٠٢ -
 ١٠٦ - ١١٠ - ١١١ - ١١٣ -
 ١١٤ - ١١٥ - ١١٦ - ١٢٤ -
 ١٢٥ - ١٢٦ - ١٢٧ - ١٣٢ -
 ١٣٣ - ١٣٧ - ١٣٩ - ١٤٠ -
 ١٤٣ - ١٤٥ - ١٤٧ - ١٥٠ -
 ١٥١ - ١٦٠ -
 محمد بن الحسن المكي : ٧٠ .
 محمد بن الحسين : ١٥ - ٢٦ .
 محمد بن سهل : ٩ - ١٢٦ .
 محمد بن عيسى : ٥ .
 محمد بن الفضل : ١٤ .
 محمد بن منير : ١٥٠ .
 محمد بن واسع : ١١٨ .
 محمد الوراق : ٨ - ٣٠ .
 يحيى الدين بن عربي : ٦٤ - ١٥ -
 ٢٠ - ٢١ - ٢٢ .
 مصطفى الباني الحلبي : ٣٢ - ٣٤ .
 معروف الكرخي : ٦ .
 المغيرة : ١١٣ .
 الفضل بن المهلب : ٤ .
 منصور بن عمار : ٦ .
 منورسكي : Minorsky : ٤ .
 موسى (عليه السلام) : ١٩ - ٧٢ -
 ٧٩ .
 موسى بن عبد الله : ٤ .
 ميكائيل : ٨٢ .
 نافع : ٨١ - ١٥٠ .
 النعمان بن بشير : ٧١ .
 نمرود : ١٥٨ .
 نهار بن توسعة : ٤ .
 عمار بن منصور : ١٢٦ .
 عمير بن عبد الله : ١٠٤ .
 عيسى (عليه السلام) : ١١٩ - ١٢٠ -
 ١٣٩ - ١٢٦ .
 عيسى بن يونس : ١٠١ .
 الفارابي : ٣٠ .
 فرات بن حباب : ١٤٠ .
 فرعون : ١٥٨ .
 فريد الدين العطار : ٧ - ٩ - ١٠ .
 الفضل بن محمد : ٩ - ٨١ - ١٤٠ .
 الفضيل بن عياض : ٦ .
 القاسم العمري : ١٣٤ .
 قتبية : ١٥٠ .
 قتبية بن سعيد : ٩ - ٧١ .
 قتبية بن مسلم : ٤ .
 القشيري : ٦ - ٨ - ١٠ - ١٢ - ٢٧ .
 قيس بن أبي خازم : ١١٣ .
 لقمان (عليه السلام) : ١١٢ .
 ليث : ٥٨ .
 ماسانيون Masaignon : ٢٠ -
 ٢٩ - ٣٠ .
 مالك بن دينار : ٥٦ - ١٠٣ - ١١٤ -
 ١٥٥ .
 محارب بن دثار : ١٤٠ .
 محمد (صلى الله عليه وسلم) : ١٣ -
 ١٦ - ١٧ - ١٩ - ٢٠ - ٢١ -
 ٢٢ - ٢٣ - ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ -
 ٤٤ - ٤٨ - ٥٥ - ٥٩ - ٦٤ -
 ٦٥ - ٦٧ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٠ -
 ٧١ - ٧٢ - ٧٤ - ٧٥ - ٧٩ -
 ٨٠ - ٨١ - ٨٢ - ٨٨ - ٩٠ -

- سفيان بن وكيع : ٩ - ٧١ - ١١٣ .
 سفيان الثوري : ٩٩ .
 سلمان : ١٣٩ .
 سليمان (عليه السلام) : ١٩ - ٢٤ - ٥٦ .
 سهل بن تمام : ١٢٦ .
 سهل بن علي : ٤٧ .
 سوار : ١٤٠ .
 سيار : ١١٤ - ١٥٥ .
 شريح بن عبيد : ١١٢ .
 شستر بيتي : ١٣ - ١٤ - ٣١ - ٣٢ .
 شقيق البلخي : ٦ - ٩١ .
 شهر بن حوشب : ١٠٢ .
 صالح بن عبد الله : ٩ - ٥٨ .
 صالح بن محمد : ٩ - ١٢٦ - ١٣٤ .
 صالح المري : ١٠٢ .
 ضمضم بن زرعة : ١١٢ .
 عائشة : ١١٠ .
 عاشر : ٣١ .
 عاصم بن عبد الله : ١٣٤ .
 عامر بن عبد قيس : ٤٨ - ١١٤ - ١١٨ .
 عباد بن يعقوب : ٩ .
 عبد الجبار بن العلاء : ٩ - ٦٩ - ١١٣ .
 عبد الرحمن بن ميمون : ١١٠ .
 عبد الرحيم : ١٠٣ .
 عبد العزيز بن أبي رواد : ٧٠ - ١٥٠ .
 عبد الغفار بن ميمون : ٨١ .
 عبد الكريم بن عبد الله : ٩ - ١١٤ .
 عبد الله : ١١٤ .
 عبد الله بن أبي زياد : ٩ - ١١٤ - ١٥٥ .
 عبد الله بن الأشعث : ١٤٠ .
 عبد الله بن زيد : ١١٢ .
 عبد الله بن عمر بن الخطاب : ٥٨ - ٨١ - ١٤٣ - ١٥٠ .
 عبد الله بن عمر الرقي : ٨١ .
 عبد الله بن مسعود : ٩١ .
 عبد الله بن نافع : ١٣٧ .
 عبد الملك الجزري : ٨١ .
 عبد الواحد بن حمزة : ١١٠ .
 عبد الواحد بن يزيد : ١٢٦ .
 عبد الوهاب الثقفي : ٧١ .
 عبيد بن عمير : ١٠٣ .
 عتبة بن عبد الله : ٩ .
 عثمان بن مسعود : ٤ .
 عروة : ١١٠ - ١١٣ .
 عسكر بن حصين : ١٠ .
 عفيق : ٢١ .
 علي : ١٠٤ .
 علي بن أبي طالب : ١١٢ - ١١٣ .
 علي بن حجر : ٩ .
 علي بن الحسن : ١١٤ .
 علي حسن عبد القادر : ٣٢ .
 عمر : ١٢٦ .
 عمر بن أبي عمر : ٩ - ١١٢ .
 عمر بن الخطاب : ٢٤ - ٤٤ - ١١١ .
 ١١٢ - ١١٣ - ١٢٠ - ١٣٤ .
 عمر بن عبيد : ١١٢ .
 عمر بن منصور : ١٢٦ .
 عمر مولى غفرة : ١٠١ .

- حبيب العجمي : ١٠٢ - ١٠٣ .
 حبيب القارياني : ١٠٣ .
 الحجاج بن فرافصة : ٩٩ .
 الحسن : ١٢٦ .
 الحسن البصري : ١٣٩ - ١٤٠ - ١٤٣ .
 الحسن بن علي : ٩ .
 الحسن بن عمر : ٩ .
 حفص بن سليمان : ١١٤ .
 حماد بن سلمة : ١١٣ .
 حواء : ٥٩ - ٧٦ .
 خالد بن أبي معدان : ١١٤ .
 خالد بن الوليد : ١١٣ .
 خالد الحذاء : ٧١ .
 الحزرجي : ٦٩ .
 الحضر (عليه السلام) : ٨ - ١١١ .
 دارا شيكوه : Dara ShiKuh : ١١ .
 داود (عليه السلام) : ٦٦ - ١٣٥ .
 ١٤٧ .
 داود بن نصير : ٦ .
 الذهبي : ٣ - ٩ - ١٠ - ١١ .
 ذو النون المصري : ٦ .
 راشد بن أبي راشد : ١١٤ .
 الربيع بن روح : ١١٢ .
 زريق بن الورد : ٨١ .
 الزمخشري : ١٠٧ .
 زهير بن حرب : ١٤٠ .
 السبكي : ٣ - ٩ - ١١ - ١٥ .
 السدي : ١٤٣ .
 السري السقطي : ٦ .
 سعد بن معاذ : ١١٤ .
 أويس القرني : ١٤٠ .
 بارتولد : Barthold : ٤ - ١١ .
 البخاري : ٥٥ .
 بديل العقيلي : ٩٩ .
 بروكلمان : Brockelmann : ٥ - ١١ .
 بشر الحافي : ٦ .
 بوسلافسكي : ١١ .
 الترمذي (المؤلف) : ٣ - ٦ - ٧ -
 ٩ - ١٠ - ١١ - ١٢ - ١٣ - ١٤ -
 ١٥ - ٢٠ - ٢١ - ٢٢ - ٢٣ -
 ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٩ -
 ٣٠ - ٣١ - ٣٣ - ٣٤ - ٨٩ - ٩٠ .
 التهانوي : ٢٦ .
 تيمور : ١١ .
 ثابت البناني : ٦٩ - ١٥٠ .
 جاراود بن معاذ : ٩ - ٩١ - ١٠٤ -
 ١١٣ .
 جب : ١١ .
 جبريل (عليه السلام) : ٧٢ - ٧٦ -
 ٨٢ - ٨٤ - ١٠٢ - ١١٠ - ١٥٠ .
 جرير : ٥٨ .
 جعفر بن سليمان : ١٥٥ .
 جندل بن وائق : ٨١ .
 الجنيد : ٦ - ١٢ - ١٣ .
 حاتم الأصم : ٦ .
 حاجي خليفة : ١٥ .
 حارثة : ٦٩ - ٧٠ - ١٠٦ - ١٢٧ -
 ١٢٨ - ١٣٣ - ١٥٠ - ١٥١ .
 الحارث المحاسبي : ٦ - ١٢ - ٢٣ .
 حافظ آبرو : ٤ .

٢ — فهرس الأعلام

- آدم (عليه السلام) ١٦ — ١٩ — ٣٧ —
 ٤٠ — ٥٩ — ٦٨ — ٧٥ — ٧٦ — ٨٤ —
 ٩٢ — ١٣٧ — ١٥٦ .
 إبراهيم بن آدم : ٦ .
 إبراهيم بن محمد (ص) : ١٠٤ .
 إبراهيم بن المستمير : ٩ — ١١٠ .
 إبليس : ٣ — ٤٢ — ٥٠ — ٧٥ — ٧٦ —
 ٧٧ .
 ابن أبي حبيش : ١٥٠ .
 ابن أبي نعيم : ٥٨ .
 ابن التستري : ٣٠ .
 ابن جرير : ١٣٧ .
 ابن خلدون : ٢٤ .
 ابن عباس : ٨٠ — ١٠٠ — ١١٠ —
 ١١١ — ١٢٦ — ١٣٧ — ٢٤٣ .
 ابن عثمان سعيد : ١٤ .
 ابن عون بن أبي راشد : ١٢٦ .
 ابن عياش : ١١٢ .
 ابن كرام : ٣٠ .
 ابن المبارك : ٩٩ — ١٠٢ — ١٠٣ .
 ابن مهدي : ١٤٠ .
 أبو بكر بن أبي مریم : ١١٤ .
 أبو بكر بن سابق : ٩ — ١١٢ .
 أبو بكر الصديق : ١١٣ .
 أبو بكر السكلابي : ٢٧ .
 أبو تراب النخشي : ٦ .
 أبو الحسن النوري : ٢٣ .
 أبو داود السجستاني : ٥٠ .
 أبو ذر : ١٠٤ .
 أبو سليمان الداراني : ٦ .
 أبو صالح : ١٤٣ .
 أبو عامر العقدي : ١١٠ .
 أبو الفرج بن الجوزي : ٣ .
 أبو قلابة : ٧١ .
 أبو كبشة : ٨٠ .
 أبو مالك : ١٤٣ .
 أبو معاوية : ٩١ .
 أبو مقاتل : ١٢٦ .
 أبو المنذر القطعي : ١١٠ .
 أبو نصر السراج : ٢٦ .
 أبو نعيم الأصبهاني : ٣ — ١٠ .
 أبو يزيد البسطامي : ٦ .
 أحمد بن أبي الحواري : ٦ .
 أحمد بن حنبل : ٥٠ .
 أحمد بن خضرويه : ٦ — ١٠ .
 أحمد بن يحيى : ١٠ .
 أربري : ٢٧ — ٣٢ .
 أسباط : ١٤٣ .
 إسحاق بن أبي فروة : ٨١ .
 إسرافيل : ٨٢ .
 الإسكندر الأكبر : ٤ .
 أسلم بن سالم : ٨١ .
 إسماعيل بن أبي خالد : ١١٣ .
 إسماعيل بن شيبه : ١٣٧ .
 إسماعيل بن عياش : ١٠١ .
 إسماعيل بن نصر : ٩ — ١١٠ .
 الأعمش : ٩١ — ١١٢ .
 أنس بن مالك : ٦٨ — ٦٩ — ١٢٧ —
 ١٥٠ .

١٠٦	تمثيل رياضة النفس برياضة البازي والدابة	٧٢	مطلب الإحسان
١١٠	التقرب إلى الله بالنوافل	٧٣	أصناف العمال
١١١	شأن الخضر	٧٦	إجمال في اتقاء الفرع
١١٤	صقل القلوب	٨٢	في السير إلى الله
١١٦	صفة القباب	٨٥	مطلب النيات
١٢٠	الغفلة عن رياضة النفس	٨٦	ابن آدم مطبوع على سبع
١٢٢	منع اللذة والشمهوة عن النفس		وصف رياضة النفس
١٢٤	منع النفس من الطيبات		أرب النفس
١٢٧	تحرير القلب من رق النفس	٩٠	إنشاء الخلق لإظهار الربوبية
١٢٧	حديث حارثة	٩١	دعوة الخلق إلى التوحيد
١٢٩	ثقة الموقن بأمر الرزق	٩٢	الهوى والشمهوات
١٣١	تأثر القلب بالعلم والموعظة	٩٣	الإيمان واليقين في القلب
١٤٠	زيادة الإيمان	٩٤	شأن الرزق
١٤٥	الغفلة والغفلة		رياضة النفس وأثرها في
١٤٧	الأمر بالمجاهدة	٩٨	قبول أحكام الله
١٥٠	النصرة	١٠٠	مجاهدة النفس
١٥٢	المجاهدة على الحقيقة	١٠١	الصابر والراضي
١٥٦	ماهية الهوى	١٠٢	فرح الأنبياء وحزنهم
١٥٨	ثمره الهوى	١٠٣	فرح المتقين
١٥٩	تلخيص	١٠٤	كيفية رياضة النفس
		١٠٥	اليقين وطهارة القلب

الفهارس

١ — فهرس الموضوعات

٤٠	الكبر في النفس		مقدمة
٤٠	الاستنطاق للذرية	٣	الترمذى وموطنه
٤١	نور التوحيد	٥	المشرق والتصوف الإسلامى
٤٢	المجاهدة	٧	حياة الترمذى
٤٣	الجوارح السبع	١٢	أسلوبه
٤٤	سلطان الشهوة وسلطان المعرفة	١٣	مؤلفاته
٤٥	منع النفس من الحلال	١٣	الكتب الموجودة
٤٨	سلطان القلب على الجوارح	١٤	الكتب المفقودة
٤٩	الفرح الحمود والمذموم	١٥	مبادئه
٥١	إشراق الأنوار على القلب	٣٠	الإخراج
	بحث الأكياس عن حال	٣١	المخطوط أ
٥٣	النفس	٣١	المخطوط ب
٥٨	الجوارح السبع أمانة		كتاب الرياضة
٦١	البدء بالصوم	٣٤	أجزاء الإنسان وعمل كل جزء
٦٣	اتقاء الفرع	٣٦	موضع الشهوة
٦٨	ورع المؤمن	٣٧	موضع الفرع
٧٠	صقل القلب بالأنوار	٣٨	أصل الهوى
٧١	تجلى الله	٣٩	موضع المعرفة والعقل

فاستقام ، ولم يبق من الهوى والشهوة حركة تميل به ، وتهوى هكذا وهكذا ، عن مشيئات ربه ، وما استنار من قدرته النافذة ، وربوبيته الظاهرة . ومنهم من ضعف عن هذه الأمور ، لم يقدر على رفض الشهوات ، وقطع الهوى ، فما زال مفكرا في قدرته ، ومعتبرا أمور الله عز وجل بقلب فارغ يريد الخير ، مقبل على الله تعالى بمجهوده ، فكان يزداد بذلك كل يوم يقينا ، وقوة نور في تلك المعرفة ، حتى غلب نور المعرفة ظلمة الهوى ، فخرقه ومزقه ، وبدده ، فاستكان لربه في أمورده ؛ ومنهم من كان هكذا في جهد وطلب ، فأدركته رحمة الله تعالى ، فغذب قلبه جذبة إليه ، فصار من الله بمحل ومكان ، بقطع الهوى ، فصار دكا ، واستنار القلب بما فيه ، وذائق النفس من حلاوة قرب الله عز وجل ما هلت^(١) عن جميع شهوات الدنيا ، فصار الهوى والمنية والفرح والسرور درك ما نال من قرب الله عز وجل ، فنجى من هذا ، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

تم الكتاب بحمد الله ومنه

(١) كذا في الأصل . والصواب : هلت به .

مناد ، أن يسمع بذكر أحد غيره يقدر على شيء ، فأراد أن يطمس هذا الذكر ، فأرى أهل مملكته أنى حاربته فقتلته ، بما رجع إليه من السهم المدمى . هذا ثمرة الهوى الذى يهوى بك إلى قضاء الشهوات ، ودرك ماهو من جنسه ، فاحذروه ، فإن الصغيرة الضعيفة منه تقوى حتى تصير كبيرة قوية ، ترمى بك فى أودية المهالك ، والمؤمن أنقذه الله تعالى بالمعرفة من أن يدعى الربوبية ، أو يقصد لمحاربتة ، لأن نفسه قد أيقنت ، فأيست عن هذا المعنى ، ولكن تطلب مادون ذلك فى أموره ، فليس هذا له بحقيق ولا خليق .

فقد حصل ^(١) من جميع ما وصفنا إلى هذه الغاية ، أن ظلمة هذه النفس الشهبونية قد استولت على القلب ، حتى عجز عن حفظ الحدود ، وألا تنهى عما زجرت عنه ، وإيثار ما أمرت به ، وعن أداء الحقوق ، وعن القيام بشكر إلهك ، فحالت تلك الظلمة عن رؤية الوعد والوعيد ، وعن رؤية ربوبيته الظاهرة عليك ، وقدرته النافذة فيك ، وفى الأشياء كلها ، فافترق الناس فى هذا الخطب العظيم فرقتين ، فمنهم من أقبل على الحمية ، ورفض الشهوات ، وآثر التنغيص على جميع لذات النفس ، حتى ذل له وانقمع ، تقوى على وثاقه ، ثم قوى على قطعه فقطعه ، فأشرقت شمس معرفته من قلبه ، وهو النور الذى فيه ، فأضاء كل شيء . رأى بذلك النور الربوبية الظاهرة ، والقدرة النافذة ، والسلطان القاهر للأشياء ، وجرى الأشياء كلها على مشيئاته وإرادته ،

(١) فى الأصل : مثل .

على ما يريد ، لا يخالفه أحد ، فينال لذة جميع ما يهوى فيدعوك الهوى ،
ويعمل بك إلى طلب اللذة ، وقضاء الشهوة ، فإذا خاف أن لا ينال
ما أراد ، قهر الخلق كلهم ، وقد علم أسباب القهر ، أنه إنما يكون بأخذ
قلوبهم ، أو بخوف في قلوبهم منه ، لما يرون من عزه ، ونفاذ قوله
وأمره ، فلما فهمت النفس أن نوال^(١) اللذات والشهوات التي هي النفس ،
علمتها في أخذ قلوب الناس ، إما بمحبة مكتسبة ، أو بترين عندهم
ومدحة ، حتى ينظروا إليك بعين التعظيم ، وإما بعمل يخافونك عليه ،
أحببت العز ، واشتهيته وطلبت به . فهذا كله إنما حصل منك من أجل
نوال^(٢) الشهوة واللذة التي في نفسك ، حتى تظفر به ، فما ظفرت به
فقد سمنت عليه ، وفرحت وبطرت وأشرت ، وما لم تظفر به طلبت العز ،
وهي المنعة ، لتقهر الناس ، وتأخذ بقلوبهم ، حتى لا ترد في أمر شائته ،
أو هو يته وأردته .

قال له قائل : فما ثمرة هذا الهوى ؟ قال : ثمرة أن يدعوك إلى أن
تدعى الربوبية ، فمن ههنا ادعى فرعون الربوبية ، حتى يكون نافذ القول
في شهواته ومنه ، جازر الأمر ، دعاه ذلك إلى أن قال : « أنا ربكم
الأعلى^(٣) » . هذه ثمرة ، ومن ههنا ضاق الأمر بنمرود ، حتى احتال
للعود في التابوت ، ليطيّر به إلى الخالق الأعلى ، زعم أني أحارب إله
السماء ، لم يحتمل للضيق الذي حلّ به من قوة شهوته ، وإرادة إنفاذ

(١) كذا في الأصل . والنوال العطاء ، والمراد : « نيل » . وهو المصدر .

(٢) سورة ٧٩ ، آية ٢٤ .

الهوى هو عنصره الذى فيه جوهريته الترابية ، فكانت تلك الترابية متشعبة فى النفس ، وهو صفوة غذاء الأم ، والهوى تنفس النفس ، وهو كدورته ، وأصل جوهريته ، وهو مظلم ، وهو قوة غذاء الأم ، لأن التراب مظلم ، وأملك إنما ربتك من اللبن ، ومما أخرجت الأرض ، فذلك قيل فى الحديث : لكل شئ نفس ، ونفس النفس الهوى ، فما دام الروح فيك ، فأنت كون الروح ، فإذا خرج الروح منك ، صار وجهك وجميع جسدك كأنه ذرّ عليك التراب ، لأنه لما زال الروح تغير الجسد إلى جنسيته الترابية ، فقد علم شهوات الأرض ولذاتها ، وعرفها بذلك العنصر المنظم للشعب . هناك له ميلان ، يهوى إلى جنسه . فسمى هوى ، لأنه تهوى به النفس ، والنفس تهوى بالقلب ، والقلب يهوى بالأركان إلى العقل ، والعقل يهوى بجميع الجسد غذا إلى النار ، فمن ههنا هواء يميل بك إلى نعيم الأرض ، لأنه من جنسه ، وإليه يحنّ ، وله يألف ، فهذه النفس مضطربة إذا حملت عليها أمر الله تعالى ، كذلك الأرض لما حمل عليها الخلق اضطربت ، فأسكنت بالجبال الرواسى حتى سكنت . كذلك النفس ، إذا اضطربت فإنما تسكن بالمعرفة ، فكلما كانت معرفتك أعظم وأثقل على القلب ، كانت النفس أسكن ، ومنه قيل : الإيمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى ، فحب الحمدة والرياسة والعلائق والعلو بشهوة العز ، وإنما أحب العز واشتهاه ، لاستدامة نعمة النفس ، لأنه قد علم أنه إذا عز وعلا على الخلق ، أدرك مناه ، وجميع ما للجسد والنفس فيه لذة ، ويكون قد قهر الخلق كلهم ، حتى يكون كله

به حياة ، وقال : إذا فعلت هذا بلغت علم اليقين . فعمل اليقين أن تعبد
سبحانه كأنك تراه ، وكذلك وصف الله تعالى علم اليقين في تنزيله ،
فقال : « كلا لو تعلمون علم اليقين ، لترون الجحيم ^(١) » ، فأخبر تعالى :
أن بعلم اليقين ترى الأشياء « ثم لترونها » : أى غذا ، يعنى الجحيم ،
« عين اليقين ^(٢) » . فهذا حق الجهاد ؛ وأما الآخر فإنه رجل أراد مجاهدة
نفسه ، فصام أياما ، ثم ترك ، واجتنب بعض الشهوات ، وتناول بعضا ،
وحزن مرة ، وفرح أخرى ، وبكى يوما ، وضحك أياما ، وصام وصلى ،
وساح مرة هكذا ومرة هكذا ، وحمل على نفسه مؤنا كثيرة ، وأتعب
نفسه من طريق أنواع البر ، من سهر الليل ، والحج ، والجهاد ، إلا أن
ذلك كله بهواه عمل ، حيث طرب ونشط ، لا بمجاهدة ، فهذا رجل يريد
أن تسلم له نفسه وماله ، ويقضى شهواته ومناه ، ويكون مجاهدا ، فهذا غير
محقق جهاده ، يعطى ثواب هذا التعب والعناء ، ويؤجر عليه ، ولكن لم
يحارب الهوى فى كل موطن حتى يقتله ، فيكون قتيل الله تعالى ، يقبل
روحه ، فيحييه ، ويفرحه بنفسه ، فالجرب من عندك ، والنصر من
عند الله العزيز الحكيم ، فإذا نصرت قتلت هواك ، وتخلص روحك منه
وقلبك ، فقبله وحياء ونوره ، وهداه واجتباة ورعاه .

قال : له قائل : وما الهوى ؟

قال جوهره النفس ، لأن آدم عليه السلام خلق من تراب ، فكان

(١) سورة ١٠٢ ، آية ٥ ، ٦

(٢) سورة ١٠٢ ، آية ٧

قلبه عنده فرح مستبشر حتى ؛ فمن ههنا برز الصديق على الشهيد ، لأن الشهيد احتسب بنفسه ^(١) على الله تعالى مرة واحدة ، حتى قتل ، والصديق يحتسب بنفسه ^(٢) ، فلم يزل يقاتل هواه في كل حركة حتى قتل الهوى ، فخلص روحه وقلبه من الهوى ، فهذا غاية الصدق ، فسمى صديقا ، لأنه لم يبق في نفسه منازع ، فصار البدن كله له به مبدولا بصدق منه ، لامنازة للهوى فيه ، فكما صار الصديق عنده في الآخرة حيا مرزوقا ، صار بالصدق هاهنا في القلب به مرزوقا ، فرحا مستبشرا بما آتاه الله من فضله ، وكما صار الشهيد في الآخرة بعد أن وصل إلى النعمة يشتهي أن يرد إلى دار الدنيا ، فيقتل فيه ^(٢) ، فصار منيته كذلك الصديق ماتت شهواته ، فصارت منيته ونهمته في ذكره وعبادته ، ومنه قوله تعالى في بعض الكتب : أيها الصديقون ، تنعموا بذكرى ، فإنه لكم في الدنيا نعيم ، وفي الآخرة جزاء . حدثنا ابن أبي زياد ، قال : حدثنا سيار ، عن جعفر بن سليمان ، عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى ، قال : قرأت في بعض الكتب : إن سرّك أن تحيا وتبلغ علم اليقين ، فاحتل في كل حين أن تغلب شهوات الدنيا ، فإنه من يغلب شهوات الدنيا يفرق الشيطان من ظله . أفلا ترى أنه قال : إذا غلبت شهوات الدنيا حييت ، لأن القلب إذا كان في ظلمة الهوى وغفلته ، كان كالميت ، وليس بالميت ، لأن الميت قلب الكافر ، وقلب الغافل كالميت ، وليس

(١) كذا في الأصل ؛ والباء زائدة .

(٢) كذا في الأصل .

الجهاد في طلب الجهاد ؛ والأول رجل متحرر للخير ، طالب للشواب .
 فكذلك جهاد النفس حق جهاده ، أن يصدق اللقاء ، فلا تسلم منه نفس
 ولا مال ، فإذا أخذ في المجاهدة خلصت الهموم والأحزان إلى النفس ،
 وانقطعت اللذات والشهوات ، وتغير اللون ، ونحل الجسم ، وضعف
 البدن ، وذهب الفرح والتسلط ، واشتغل القلب ، فضعف عن طلب
 الدنيا ، قد ^(١) خلص النكص في المال ، وتعطلت الأمور ، ووجد المكاسب
 والأرباح ، وأدبرت الدنيا عنه ببهجتها وزينتها ، ولذاتها وعزها ، وبهائها
 وملكها ، وصافها ^(٢) وخدعها ، وأقبلت الآخرة بمحاثها ، من البكاء
 والأحزان والاستكانة والصلاة والصيام والذكر والقرآن وأعمال البر ،
 فشغل عن الأهل والولد ، وعن التلذذ بقربهم ، والأنس بهم ، فصار
 الولد يتيم ، والأهل كالأرملة ، والمسكن وحشا ، وتعطلت الأوقات التي
 كان يتلذذ فيها عند الغداء والعشاء ، وتبدل بها جوعا وييسا ،
 وبالضحك بكاء ، وبالفرح حزنا ، وبالسرور غموما ، وبالراحة نصبا ،
 والنوم سهرا ، وبالذعة تعباً وضيقاً ، وبالغنى فقراً ، وبالعزيزاً ، وبالمدح
 ذماً ، وبالثناء طعناً وعيباً ، فلم تسلم نفس ولا مال ولا جاه ولا قدر إلا ذهب
 كله ، فهذا قتيل الله قد تبددت نفسه وشهواته ومناد ، وصار هواه
 كالقتيل ، فتخلص روحه عن هواه ، فتقبل الله روحه ، وأحيا قلبه ،
 ورزقه من حيث لا يحتسب ، ووصل بقلبه إلى إلهه ، ففرح واستبشر ،

(١) كذا في الأصل . ولعله : وخلص .

(٢) كذا بالأصل . ولعله : وصفوها .

وتعبه ، وأنه كثر سواد المسلمين وأعانهم ، وشايعهم . ورجل أخذته
 حمية الإيمان ، فغار لربه ، فخرج يقصد محاربة عدو ربه ، انتقاما وتعظيما
 على عدوه ؛ أو رجل أيس من نفسه أن يخرج منه خير ينجو به ، ورأى
 قبح مذاهبه ، وسوء فعالة ، فضاق به الأمر من شراهة نفسه ، وقلة ضبطه
 لها ، فاغتاظ منها ، وحمى لربه على نفسه ومقتها ، وهاله عظيم خطره ^(١) منها ،
 فقدمها إلى العدو لتحاربه ، لعله أن يرزق الشهادة ، فيقتل ويفسل بدمه
 سائر جسده ، حتى يلقى الله تعالى طاهرا من أقدار المعاصي . فهذا رجل
 خرج بهذه النية ، أو بتلك النية التي غاربها لربه وحمى له ، وهو أرفع
 درجة من هذا الذي برم بنفسه ، وأراد التطهر ، فلما لقي أحد هذين
 العدو ، ونهيمته في عامة مسيره المحاربة ، إما غير لربه وحمية ، وإما
 طلب تطهير لبدنه ، والظفر بالشهادة ، ظهر منه صدق اللقاء ، فبادر
 وحارب وجاهد ، فلم يلبث أن صار قتيلا ، وبالدماء مزمولا ، وتبددت
 أعضاؤه من الضرب والطعن ، وتبدد سلاحه هكذا وهكذا من نهيمه
 العدو ، وأخذت دوابه وجميع ما هناك ، وتقبل الله روحه ، فجعله حيا ،
 يرزقه عنده ، فرحا مستبشرا بما آتاه الله من فضله ، كما وصف تعالى في
 تنزيله قصة الشهداء ، فقال : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا
 بل أحياء ^(٢) » ، إلى آخر الآية ، فصار روحه مقبولا ، وصار عنده حيا
 فرحا ، مستبشرا مرزوقا ، من غير تعب ولا كد ولا عناء ؛ فهذا حق

(١) في الأصل : خطوه .

(٢) سورة ٣ ، آية ١٦٩ .

قال له قائل : فكيف تكون المجاهدة على الحقيقة ، إذ قال
حق جهاده ؟

فقال : اعتبر مجاهد الظاهر ، وامثل رجلين : أحدهما سلاحه
تام ، وحمل نفقة سنة ، وتجهز بما يحتاج إليه ، ورافق في الطريق
رفقاء ، وتبسط في مسيره ، وطرب مع رفقاته ، وتلذذ برؤية الكون
ولقاء الناس ، وفرح بما نسب إليه من الجهاد والغزو ، فليل : هذا فلان
الغازي ، وطمعت نفسه في علو المرتبة ، وارتفاع المنزلة عند الناس ، واتخذ
الجاه عندهم بذلك ، ونال الكرامة في مسيره مقبلا ومدبرا ، وقلبه ههنا
معلق بحب الدنيا وما خلف فيها ؛ فهذا حاله في الطريق ، حتى إذا بلغ
المنتهى ، فعلى وده أنه لا يلقى عدوا أبدا ، ولا يسمع بذكره ، فهو مقيم
هناك مع حنين قلبه إلى شهواته ومناه التي خلفها وراء ظهره ، حتى إذا
لقى العدو ، وجاهد مجاهدة مراوغ ليس له صدق القتال ، يريد الزوغان^(١)
والنكص على عقبه ، والهرب ، حتى إذا انقضى الجهاد مر منصرفا
مسرعا إلى شهواته التي حن إليها ، وإلى مأواه الذي قد ألفه ، ووطنه
الذي قد استوطنه ، قد سلم بنفسه ، وسلم سلاحه ودوابه وعامة نفقته ،
جاء به كما ذهب به إلا النفقة ، ما أنفق في مسيره ، وما أنفق أيضا فقد
طرب إليه وتلذذ ، وقضى مناه وشهواته بتلك النفقة ؛ فهذا قد سمي فعلة
هذا جهادا ، فلم يكفر فعلة ، بل يعطى ثواب نفقته غدا ، وثواب عنائه

(١) في الأصل : « الروغات » .

وهذا النوع فى الآثار كثير . وإنما أدرك هذا حارثة بمجاهدات النفس ؛ ألا ترى إلى قوله : عزفت نفسى عن شهوات الدنيا ولذاتها . فهذا قطع الهوى ، فإذا قطعه هداه الله طريقه ، فإذا نظر صار كأنه يراه بلا كيف ؛ وهكذا وعد فى كتابه ، فقال : « والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا ^(١) » . فإذا هداه طريقه ، لم يبق على قلبه حجاب للشهوة والهوى ، لأنه فتح طريق قلبه إليه ، فحينئذ يمكنه السكون إليه ، ويطمئن القلب ، ويشق بوعده ، ويأتمنه على نفسه ، ألا ترى إلى قول الرسول حيث حكى عنهم ، قالوا : « وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ^(٢) » ... الآية . فأخبروا أنهم إنما قدروا على التوكل ، وهو تفويض أمر النفس إليه ، بأنه هداهم لسبيله ، فزال الحجاب ، أعنى الهوى والشهوات عن بصر القلب ، فلم يبق بين يدي قلوبهم شئ يحجبهم ، فصارت الأمور لهم كالعائنة والمشاهدة . ألا ترى إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث وصف القلب ، فقال : أبصر الغيب بالغيب فأمن ، أو كما قال . فهذه نصره الرب عز وجل .

فإذا تركت المجاهدة على الحقيقة منعك النصره ، فبقيت مخذولا ، مأسورا فى يدي الشهوة والهوى ؛ فإذا صار القلب مأسورا ، فهو كملك مأسور فى يد العدو ، فإذا تعذر عليه الأعوان والجند ، بل يذلون وينهزمون فى الملامى والأباطيل .

(١) سورة ٢٩ ، آيه ٦٩ .

(٢) سورة ١٤ ، آيه ١٢ .

كله الله ، واخلق الله ، والقدرة لله ، عوقب بأن يخذل ، وعرف بالخذلان أن اقتداره كان خطأ ، وأنه لا يقدر إلا به ، وقال تعالى : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم ؛ وإن يخذلكم فمضى الذل الذي ينصركم من بعده ^(١) ؟ » قال له قائل : فما النصرة ؟ هل يمكن أن توصف ؟

فقال : إن نور المعرفة في القلب ، حتى يخرج إلى عين القلب ، والهوى قائم على القلب حجابا ، فإذا جاهد العبد هذا الهوى حق المجاهدة ، وحق جهاده هو غاية طاقة العبد ، فنصرتة أن يهديه سبيله ، وهو أن يجعل له طريقا من قلبه إليه ، حتى يصير عين قلبه كأنه يراه من غير كيفية ، وهو قول جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث سأله عن الإحسان ، فقال : أن تعبد الله كأنك تراه . وقال في حديث آخر : إن أقواما أيقنت قلوبهم ، حتى كأنهم عبدوا الله على رؤية . وقال ابن عمر رضي الله عنهما في حديث : إنا كنا نقرأى ^(٢) الله تعالى بين أعيننا في الطواف . حدثنا بذلك قتبية ، عن محمد بن منير ، عن ابن أبي رواد ، عن نافع ، عن ابن عمر . وقال في حديث حارثة ، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف أصبحت ؟ قال : مؤمنا حقا . فسأله عن الحقيقة ، فقال : كأنى أنظر إلى ربي على عرشه . هذا في رواية ، حدثنا أبي ، عن ابن أبي حيش ، عن عبد العزيز بن أبي رواد . وأما رواية ثابت عن أنس ، فإنه روى : كأنى أنظر إلى عرش ربي .

(١) سورة ٣ ، آية ١٦٠ .

(٢) في الأصل : نقرأيا .

نصرتكم، ثم قال: «نعم المولى ونعم النصير»^(١): ينبئك وهو يملك
 كثرة النصره ومتابعتها، فإذا تركت الاعتصام به خذلك، وخذلانه
 أن يمنع النصره، فإذا منع النصره، فجاهدت النفس، رمتك بسهام
 الشهوة والهوى، فرميتها بسهام المعرفة والعقل، لم تغلبها وغلبتك، لأن
 العلم والعقل والمعرفة في القلب، والهوى والشهوة خارج من القلب،
 قائم بين القلب وبين الرب، قد أظلم على سمعك وبصير عيني قلبك
 بغشاوته، فسجن مافي القلب، وغلب على القلب، فصار بمنزلة سراج في
 بيت، والسراج في الفخار، وعليها غطاء، فاليبت مظلم، فإذا انكشف
 الغطاء أبصر ما في البيت، مما يضر وينفع، فإذا جاهدت النفس،
 فاعتصامك به في ذلك، ذكرك إياه بأنك لا تستطيع دفع هذا إلا به،
 واستغناك به هو الذي يغنيك ويعنيك، فينصرك، وكيف لا يعينك
 وقد أمرك بأن تقول: «إياك نعبد وإياك نستعين»^(٢)، فيأمرك بالقول
 بهذا حتى تسأله ثم لا يحيبك! وقال تعالى: «أمن يحيب المضطر إذا دعاه
 ويكشف السوء»^(٣)، ثم لا يحيب ولا يكشف! تعالى الله عن ذلك،
 وإذا نسيت في ذلك الوقت، منع النصره، لتركك ذكره، ولاقتدارك في
 الأمر، وكيف لا يعاقبك بمنع النصره وقد نسيت، واقتدرت في أمره،
 وقد أمرك بأن تقول لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فمن اقتدر في أمره والأمر

(١) سورة ٢٢، آية ٧٨

(٢) سورة ١، آية ٤٥

(٣) سورة ٢٧، آية ٦٢

فقال تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع الحسنيين ^(١) » . فسماه محسنا ، ووعدته أن يكون معه ، ومن كان الله معه فهو المنصور لا يغلب ؛ فوعده على المجاهدة حق جهاده ، أنه هو الذى يلى هدايتك سبيله . هذا ثوابه فى العاجل ، فكيف بثوابه فى الآجل ، إذا قدمت عليه غدا بالمجاهدة ، وبثمرة المجاهدة ، فإن الهداية صارت ثمرة المجاهدة ، وبالهداية نلت ولاية الله تعالى ، وبولاية الله نلت قربة الله وزلقاه . ثم قال تعالى : « هو اجتباكم ^(٢) » ، أى كما جعلتك من أهل جبايتى ، جعلت لك نورا ، وفتحت عينى قلبك ، وفتحت أذنى قلبك حتى عرفتنى ، فالآن جاهد فى ذاتى هوائك وشبهوات نفسك ، حتى يظهر انقيادك لأمرى ، ويعز دينى ، وتعلو طاعتى . والمجاهدة على قالب المفاعلة ، والمفاعلة لا تكون إلا من اثنين ، إلا فى النادر فى الكلام ، فأما العام فإنه من اثنين ، فكأنه قال : « وجاهدوا فى الله حق جهاده » . وقال فى آية أخرى : « واعتصموا بالله » ، أى امتنع من شر النفس وحر بها وعداوتها بالله تعالى ، فكأن النفس عدوك ، يرمىك بسبهم الشهوة ، والهوى يقويها ، وهى مظلمة ، لا تستعين بالله عليك ، وأنت ترميها بسبهم المعرفة والعقل ، وتستعين بالله تعالى عليها ، فأنت المنصور ، لأنك بالله تجاهدها ، وهى تجاهدك لا بالله ، فذلك ربك على الاعتصام منها به ، ثم وعدك النصر ، وشجعك على المجاهدة ، فقال : « هو مولاكم » : أى يلى

(١) سورة ٢٩ ، آية ٦٩ .

(٢) سورة ٢٢ ، آية ٧٨ .

وعزم عليه ، فهو يتعاضى عليه ، وتستأديه الشهوات التي حرمت عليه ، وتزله في شأن الرزق ، وتوسوس إليه في نوائبها وأمورها ، على تدبيرها المنكوس ، وجهلها المظلم ، والرب الرحيم الرؤوف به ، قد اختار له غير ذلك ، مما هو أرفق به ، وأبر له ، وأزین به وأفضل ، فقد شغل القلب النظر إلى ما يبدو له من تضارب وتديره له ، فحديث النفس وسوسة تدبيرها ؛ وخيئته ومنته وأشقتة وألمته ، وأظلمت عليه الصدر ، وهي سلاح عدوه الشيطان الرجيم ، بها يخدعك ويوسوس لك ، ويزين لك ، ويعين هواك عليك ، فذلك قيل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك . فلما كنت بهذه الحالة وقد ألقيت بيدك إلى الله ساما ، بما جعل في قلبك ، أمرك بمجاهدته ، فقال تعالى : « وجاهدوا في الله حق جهاده ^(١) » . وأنباك في كتابه شأن النفس والهوى ، في آى كثيرة ، منها ما ذكر عن قول يوسف عليه السلام حيث قال : « وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ^(٢) » . وحيث قال لداود عليه السلام : « إنا جعلناك خليفة في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ^(٣) » . وقال تعالى : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ^(٤) » ... الآية ، فأمره بالمجاهدة حق المجاهدة ، ثم أيدنا وشجعنا ،

(١) سورة ٢٢ ، آية ٧٨ .

(٢) سورة ١٢ ، آية ٥٣ .

(٣) سورة ٣٨ ، آية ٢٦ .

(٤) سورة ٧٩ ، آية ٤٠ ، ٤١ .

وقد نجد مثل هذا كثيرا في اللغة ، يقال : جذب وجذب ، وكشر وشكر ،
وزرق ورزق ؛ ومجر^(١) ومرج ، وحجج وحجد ، وعلم وعمل ، وغرف وغفر ؛
ومثل هذا كثير ، كلاهما مرجعهما إلى معنى واحد ، ولكنهما اشتقا ،
فاستعمل هذا في نوع ، وهذا في نوع ، والآخري نوع ، وإن كان القالب^(٢)
يختلف على فعل وعقل^(٣) ، فإن الاشتقاق من معنى واحد ، وخولف في
القالب للاستعمال في نوعه ، ليعرف باختلاف القالب نوعه الذي عني به ؛
وكذلك الغفل أيضا مثله ، فقيل كشر إذا تبسم فبدت أسنانه ؛ وإذا بدا
لقلبه فرأى نعمه إليه من الأسباب شكر ، لأن النعم قد بدت له ، وكذلك
قوله رزق ، هذا^(٤) فيما بدا إليه من الأسباب في مطعمه ومعاشه ، وهذا فيما
بدا إليه بالسبق ، فيرزق به ؛ وكذلك يقال في الخبرة والمزراق ، فكذلك
الغفلة والغلفة ، معناه عندنا أن الغلفة في وقت الكفر ، والكفر هو
الغطاء ، فإذا ذهب تلك الغلفة ، ورفع الله الغطاء بمجىء النور ، بقيت
الغفلة ، وهو الهوى قائما فيما بينه وبين ربه ، وكان للقلب حجابان :
حجاب غطي ظلمة الكفر ، فإذا ذهب الغطاء بقي الحجاب الآخر قائما
بينه وبين ربه تعالى ، فهو الذي يغفله وينسيه ، وهي التي تسمى غفلة ؛
فلما صارت هذه النفس قائمة بظلمة هواها ، وتلظى نيران شهواتها ، بين
قلب العبد وبين ربه ، بعد أن أسلم له وانتقاد ، واعترف وقبل أمره ،

(١) في الأصل : نجر .

(٢) في الأصل : الغالب . والمراد بالقالب : الميزان الصرفي .

(٣) في الأصل : فعل .

(٤) في الأصل : وهذا .

تسليم نفسه إليه ، لأن إيمانه إنما آمن بأنه ربه ، فرقته له ، وجميع ممالك يمينه له ، فقد سلم إليه نفسه وملك يمينه ، فهو المسلم ، قال تعالى : « هو سماكم المسلمين من قبل ^(١) » : أى فى اللوح المحفوظ . « وفى هذا » : يعنى فى القرآن . « ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس » : أى إذا جاءت الأنبياء ، فسئلوا عن تبليغ الرسالة ، فادعوا البلاغ ، فأنكرت الأمم ، وقالوا : لم تبلغنا رسلك أمرك ، فسلم أنفسنا وملك يميننا لك ، ونأتمر بأمرك ، فأتم أهل تسميتى ، الذين ^(٢) سميتكم مسلمين ، بأنكم قد سلمتم إلى أنفسكم ، فيشهد لكم بذلك الرسول الذى بعثته بالمقام المحمود ، الذى يغطه الأولون والآخرون ، فبلغنا فى الحديث : « وتشهدون أتم لرسلى على أممها التى لم تسلم لى نفسها ، فبهذا صرتم شهداء رسلى ، وحججى على خلقى » .

فلما فتح القلب عينه أبصر وسمع لما حجب إليه الإيمان ، أى وصل إلى حبة قلبه ، وترين ذلك فى قلبه ، انقاد لربه ، ألقى بيديه إلى ربه سالما ، جاءت النفس بظلمها وظلمتها ، وهى الهوى ، فوقفت بين يدى القلب ، صار على القلب كالغشاء أو كالسحابة المظلمة ، قليل غفلة ^(٣) ، والأول كانت غفلة ^(٤) ، فلما ذهبت الغفلة ^(٥) ، حيث جاء النور ، و ^(٦) بقى الهوى غفلة .

(١) سورة ٢٢ ، آية ٧٨

(٢) فى الأصل : « الذى » .

(٣) فى الأصل : غفيلة .

(٤) فى الأصل : غفلة .

(٥) فى الأصل : الغفلة .

(٦) كذا فى الأصل . والواو زائدة .

القول على الكافرين^(١) ». فالحي هو المؤمن ، فلما صار قلب هذا العبد منورا بما رحمه الله ، وقسم له في سابق علمه ، صار القلب بلا غلاف ، وأذن له ربه بالإيمان به ، قال تعالى : « وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله^(٢) » ، فذكر ههنا الإذن للنفس ، ثم ذكر القلب ، فقال : « حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان^(٣) » . فذكر تعالى فعله بالقلب ماذا فعل ، وذكر فعل النفس أنها قد آمنت ، وبماذا آمنت ؛ فخرج القلب من الغلاف ، كسحابة انقشعت عن شمس ، فاستنار ، وسمع عن الله تعالى ، وأبصر الغيب ، فصار مجتبي من أهل جباية الله تعالى ؛ وذلك قوله عز وجل : « هو اجتباكم^(٤) » . وصار موسوما بسمه الله ، وهو ذلك النور الذي أصابه ، فلما أهينت النفس ، وانقادت للقلب ، قبل القلب ماسمع عن الله ، وأبصر بالغيب ، وعقله وعزم عليه ، صار موسوما بسمه الله ظاهرا وباطنا ، فقبل هذا مؤمن ، وهذا مسلم ، لأنه قد آمن ، ولأنه قد أسلم وجهه إلى الله ، ومن أسلم الوجه إليه ، فقد أسلم إليه ب كله ، لأن الوجه اسم جامع ؛ ألا ترى أنك تقول في اللغة للسائرين بين الناس : رأيت وجوها كثيرة ، فدخل فيه البدن كله ، والمؤمن إذا آمن وقبل أمره ، فإنه يعمل على

(١) سورة ٣٦ ، آية ٧٠ .

(٢) سورة ١٠ ، آية ١٠٠ .

(٣) سورة ٤٩ ، آية ٧ .

(٤) سورة ٢٢ ، آية ٧٨ .

فقال : « أو من كان ميتا فأحييناه ^(١) » . أى بذلك النور ؛ وهو قوله :
 « وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس ^(٢) » . ولا نرى ذلك النور
 إلا ما جاءت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن الله
 خلق الخلق فى ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره ، فقد علم من يصيبه ومن
 يخطئه ، ثم أخرجهم يوم الميثاق بيضا وسودا ، ثم استنطقهم يومئذ ،
 فبلغنا عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : فأقروا له بالربوبية ، طوعا
 وكرها وتقية ، فذلك قوله تعالى : « وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا
 وكرها ^(٣) » ، حدثنا بذلك عن ابن عمر ، وعن ^(٤) أسباط ، عن السدى ،
 عن أبى صالح ، وأبى مالك ، عن ابن عباس . ثم قال تعالى : « ومن لم
 يجعل الله له نورا فما له من نور ^(٥) » . وقال : « أئمن شرح الله صدره
 للإسلام فهو على نور من ربه ^(٦) » . فلما حيى القلب بذلك النور ، صار
 سميعا بصيرا ؛ وروى عن الحسن رحمه الله عليه تفسير هذه الآية :
 « وتندر به قوما لذا ^(٧) » . قال : صم آذان القلوب ، وعلى تأويل
 قوله تعالى عندنا : « وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا ، وتراهم ينظرون
 إليك وهم لا يبصرون ^(٨) » . وقال تعالى : « لينذر من كان حيا ويحق

(١) سورة ٦ ، آية ١٢٢ .

(٢) سورة ٦ ، آية ١٢٢ .

(٣) سورة ٣ ، آية ٨٣ .

(٤) فى الأصل : وعلى . تخريف .

(٥) سورة ٢٤ ، آية ٤٠ .

(٦) سورة ٣٩ ، آية ٢٢ .

(٧) سورة ١٩ ، آية ٩٧ .

(٨) سورة ٧ ، آية ١٩٨ .

والجهر بالسوء والأذى ، وحرم عليهم الزنا ، لأن فيه الغيرة والأذى
 بعضا لبعض ، وحرم الخمر ، لأن فيها الأذى وتلف النفس وإهلاكها ،
 وحرم الربا ، ودل على المواساة والتقارض ، وقال : « ولا تنسوا الفضل
 بينكم » : ففى ذلك دليل على حضهم ، ومنع بعضهم من بعض ،
 وحضهم على السبر بعضهم لبعض ، إبقاء عليهم ، ومرفقا لهم ، لأنهم
 أهل خاصته وصفوته ، ودعاهم إلى الصلوات الخمس ، ليظهر أبدانهم ، ودعاهم
 إلى الزكاة ليظهر أموالهم ، ودعاهم إلى الجمعة ، ليظهر خطاياهم ، ودعاهم
 إلى الحج ، ليعتق رقابهم من عظام الإثم ، ودعاهم إلى صلة الأرحام ،
 ليرحم بعضهم بعضا فيرحمهم ، ودعاهم إلى الجهاد ، ليتخذ منهم شهداء ،
 ويرفعهم في الدرجات ، ثم دعاهم إلى نوع آخر من العبادة ، ودعاهم إلى
 بر الوالدين ، ليقوم بشكرهما من أجل التربية ، لأنه يبغض الكفور ،
 ودعاهم إلى الإحسان إلى الجار ، وإلى ذى القربى ، وإلى الصاحب
 بالجنب ، وإلى الضيف والمملوك ؛ وكل هؤلاء أهل حقوق ؛ ودعاهم إلى
 الإحسان إليهم ، ليكون ذلك شكرا لهم ؛ فهذه الأشياء كلها عبادة
 تعبدهم بها .

فأما أصل الأمر ، فهو ما وصفته لك فى أول الكتاب ، أنه دعاهم
 إلى أحكام المعرفة ، حتى يسكنوا إليه ، فقلب العبد من قبل أن يؤمن
 أغلف ، وللقلب عين وآذان ، فإذا كان العبد ممن خلقه الله تعالى للرحمة ،
 وسبقت له منه الحسنى ، جعل له ذلك النور كما نطق به الكتاب ،

امتحن الله تعالى بفرائضه وحدوده وأمره ونهيه ، ونهاهم عن أشياء ، وشهوات تلك الأشياء مركبة فيهم ، وأمرهم بأمور ، فثقل عليهم إتقانها ، وحد لهم حدودا ، فمد لهم هوام إلى مجاوزتها ، وإلى التقصير فيها ، والقيود عن إتمامها ، ليظهر ما في ضمائرهم ، ومقادير إيمانهم في الضعف والقوة ، خلقه من في السموات والأرض والملائكة وسائر الخلق ، لكي إذا رفع بعضهم فوق بعض في الدرجات ، لم ير أحد من خلقه من الملائكة والسموات والأرض وسائر الخلق أحكامه بين عباده إلا جيلا ؛ وابتلاهم بالطاعة ، وبالحدود والفرائض ، والأمر والنهي ، فقال : « ولنبولنكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبول أخباركم ^(١) » . أي يستخرج أسرار ضمائرهم ، حتى يكون عذري يوم القيامة قائما ، وأمرى ظاهرا ، فلا يرى خلق مني ذلك إلا حسنا جميلا ومعروفا ؛ فلما علم أنهم يضيعون حدوده وفرائضه ، من أجل الشهوات المركبة فيهم ، وضعف الإيمان ، وقلة اليقين ، علم أنه سيكون من هذا الخلق أمور تحدث أسبابها من الهوى والشهوات ، وقلة المعرفة بأمور ربه ، وضعف اليقين ، وزجرهم عن أشياء رحمة منه عليهم ، وتعظيهم ، لأن من آمن ودخل في ولايته وحزبه صار سعيدا بجنته ، فحرم دماءهم وأموالهم وأعراضهم ، بعضهم على بعض ، وحرّم عليهم الغيبة ، والبهتان ، والزور ، والتجسس ، وسوء الظن ، وهتك الستر ، وطلب العورات ،

تجری من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء من تزكى ^(١) .
 أي تظهر من الأسباب ، وهو هذه الأخلاق السبعة ، فهم أهل الدرجات
 العلى فى جنات عدن ، وهم الصديقون رفقاء الأنبياء ؛ فمن ههنا قالوا بزيادة
 الإيمان ، سمو هذا النور الذى يزداد العبد بربه معرفة به إيماناً ،
 كالشمس شعاعها الذى يقع بالأرض تسميه شمساً ، والذى يطلع فى المجرى
 تسميه شمساً ، لأن هذا منه ، ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 إن من أمتى رجلاً حال بينهم العرى عن أن يأتوا مصالحهم ، يمنعهم
 إيمانهم أن يسألوا الناس ، منهم أويس القرنى ، وفرات من حباب العجلى ،
 رحمة الله عليهما . حدثنا الفضل بن محمد قال : حدثنا زهير بن حرب ،
 حدثنا ابن مهدي وعبد الله ابن الأشعث ، عن سوار ، عن محارب بن دثار ،
 عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ؛ فسموا هذا النور إيماناً ،
 وذلك جائز فى اللغة ؛ وعلى هذا تأويل قول الحسن رحمه الله « غير
 مستكمل الإيمان » ، أى لم يستكمل النور ؛ فوجدنا التبخر فى العلم بالله
 بحسن المعرفة يملأ القلب نوراً ، يحرق ذلك النور جميع نيران النفس ،
 من الشهوات الهاوية فى القلب إلى الإخلاق والتمسكت ، فذلك تراه فى
 الآخرة يطفىء نوره نيران الآخرة والتمسكت على الجسر ، وهكذا صفة
 المؤمن يومئذ على الجسر . قلنا : كان أصل هذا الأمر ، والمدار عليه ،
 هو الإيمان به ، وحسن المعرفة له ، كما وصفنا ، من السكون والطمأنينة ،
 والثقة به ، والركون إليه ، على قدر ضعف اليقين وقوته ، كما ذكرنا بدياً ؛

يفتتن ؛ والأسباب مثل الحصن يدخل فيه الخائف ، والسلاح يأخذه
فيتقوى ، فيكون اعتماده على الحصن والسلاح ، وينسى ربه ، وكالدواء
ليستشفى به ، فينسى ربه في شأن الرزق ، يطلب ويسعى ويغفل عن
ربه حتى يفتتن ، فإذا ذكر لا يعمل فيه ذلك الذكر ، وجميع الخلق
أسباب ، القلب حائل بينه وبين رؤيته ذلك من ربه ، وهو سبب المعصية
والفتنة ؛ فإذا استنارت معرفته فعملت ، كانت كالشمس تشرق في قلبه
بالأسحار ، ولا ظلمة ولا غبار ، فصارت الأشياء له معانية ، فتخلص
القلب حينئذ من الأسباب ، إلى ولي الأسباب ، ومنه قول عيسى بن
مريم عليه السلام : لو أن رجلا استكمل الإيمان يهز جبلا لزال عن مكانه ؛
ومنه قوله لبعض الخواريين حين أراد أن يلحقه في البحر ، فيمشي على
الماء معه : هات يدك يا قصير الإيمان ، ثم مشى به في موج البحر ،
فقال : خفت الموج ؟ قال : نعم . قال : ألا خفت رب الموج ؟ ومنه قول
رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أحب الله ، وأبغض الله ، ومنع الله ، وأعطى
الله ، ونصح الله ، فقد استكمل الإيمان ؛ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم
لسامان رضي الله عنه : قل اللهم إني أسألك صحة في إيمان ، وإيمانا في
حسن خلق ، ونجاحا يتبعه فلاح ، ومغفرة منك ورحمة ورضوانا .
وفي هذا الباب حديث كثير عن رسول الله صلى الله عليه عليه
وسلم ؛ ومنه قول الحسن البصري رحمه الله عليه في تفسير قوله تعالى :
« ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه » ، قال :
غير مستكمل الإيمان : « فأولئك لهم الدرجات العلى ، جنات عدن

وقال : « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ^(١) » .
 وقال : « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ^(٢) » . وقال : « مثل
 نوره كشكاة فيها مصباح ^(٣) » . فوصفه إلى آخر الآية . وقال : « فمن
 يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ^(٤) » . ثم قال : « لهم دار
 السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون ^(٥) » ، إخبارا عن المنة
 عليهم . فلما استنار قلب المؤمن بالنور الذي أعطى ، نطق لسانه بتوحيده ،
 وعرف قلبه ربه ، وصدقته في وعده ووعيده ، فاستسلم وألقى يديه ،
 فذهب عن الشك والشرك والغفلة ، فتيقظ وأيقن وأخلص ، وبدل
 بالغفلة اليقظة ، وبدل بالشك اليقين ، وبدل بالشرك الإخلاص ،
 وبقيت فيه الشهوة والرغبة والرغبة والغضب ، وكلما ازداد العبد في إيمانه
 نورا وقوة وشعاعا ، تنقص من الغضب والشهوة ، والرغبة والرغبة ، فكل
 مؤمن على قدر إيمانه يكون من هذه السبعة باقية فيه ، يغفل عن ربه ،
 وتعتريه الظلمة كالشك وليس بالشك ، ولكنه ريبة القلب واضطرابه
 وتغيره ، كالشرك وليس بشرك ، ولكنه شرك الأسباب الموضوعة ،
 فيتعلق بالأسباب ، يكون اعتماد القلب على الأسباب ، وينسى ربه ،
 لا لأنه يحجده ، إذا ذكر أقر ، وإذا نسي تعلق قلبه بالأسباب ، حتى

(١) سورة ٢ ، آية ٢٥٧ .

(٢) سورة ٢٤ ، آية ٤٠ .

(٣) سورة ٢٤ ، آية ٣٥ .

(٤) سورة ٦ ، آية ١٢٥ .

(٥) سورة ٦ ، آية ١٢٧ .

« يكاد البرق يخطف أبصارهم ، كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا »^(١) . وقال : « كمثل الذى استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لا يبصرون »^(٢) . فأقروا له بالربوبية ، ثم غفلوا عنه ونسوه ، فهذا الشك والشرك والغفلة فيه . ثم الغضب مركب فيه ، والشهوة كذلك ، فالرغبة فى النفس من قبل النفس ، والرغبة فى النفس من أجل النفس ، وانخلق بهذه الصفة من مات منهم فإن جهنم موعدهم ، لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ، فإنما قسمت على الأبواب هذه الأجزاء لهذه السبعة الأخلاق ، فكل من غلب عليه خلق من هذه الأخلاق نسب إليه ، وألقى فى ذلك الباب ، وعذب فى ذلك الدرك . وما يصدق ذلك ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : للنار باب لا يدخل منه إلا من شقى غيظه بسخط الله تعالى ، حدثنا بذلك أبى رحمه الله ، قال : حدثنا عبد الله بن نافع الدينورى ، عن إسماعيل بن شيبه الطائفى ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : من من الله عليه من ولد آدم بالمعرفة ، وجعل له نورا يمشى به فى الناس ، كان^(٣) له وليا ، يخرج به من الظلمات إلى النور ، وكان ميتا فأحياه . ووصف ذلك كله فى كتابه ، فقال تعالى : « أو من كان ميتا فأحييناه »^(٤) ،

(١) سورة ٢ ، آية ٢٠ .

(٢) سورة ٢ ، آية ١٧ .

(٣) فى الأصل : فكان .

(٤) سورة ٦ ، آية ١٢٢ .

عن سبيل الله^(١) ؛ فالإنسان مطبوع على سبعة أخلاق : على الغضب ،
والرغبة ، والرغبة ، والشهوة ، والغفلة ، والشك ، والشرك . فخالق
كلهم أقروا بأن الله تعالى فطر الناس عليها ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى :
« قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ » سيقولون لله ، قل أفلا
تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون
لله . قل : أفلا تتقون ؟ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا
يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله . قل فأني تسحرون^(٢) .
وقوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر
الشمس والقمر ليقولن الله ، فأني يؤفكون^(٣) » . « ولئن سألتهم من
نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ؟ قل
الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون^(٤) » . فأقروا له تعالى بالربوبية من غير
عقل ، ثم أشركوا به غيره في ملكه ، فقال تعالى : « وما يؤمن أكثرهم
بالله إلا وهم مشركون^(٥) » فأقروا لله بالربوبية ، ثم أشركوا فيه لأنهم
نطقوا من قلب مظلم ، وقد ضرب الله تعالى لهم مثلاً في كتابه فقال :

(١) سورة ٣٨ آية ٢٦ .

(٢) سورة ٢٣ ، آية (٨٤ - ٨٩) . وقد وضع المؤلف سهواً مكان الآية
الأولى قوله تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع
والأبصار ؟ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ؟ ومن يدبر الأمر ؟
فسيقولون الله . فقل : أفلا تتقون ؟ » .

(٣) سورة ٢٩ آية ٦١ .

(٤) سورة ٢٩ آية ٦٣ .

(٥) سورة ١٢ آية ١٠٦ .

قد ملك المشرق والمغرب ، فعظم في عينه ، وأخذ من قلبه ؛ ثم قيل له : وهذا قوى لا يطاق ، له قوة ألف رجل من الرجال ، فعظم في عينه ، وأخذ من قلبه ؛ فكل رجل منهم يوصف بواحدة من هذه الخصال ، يأخذ من قلبك شعبة ، ويعظم في عينك شأنه ، وقبل ذلك لم يكونوا على قلبك هكذا ؛ فلو أن هذه الخصال كلها جمعت في رجل واحد ، لكان يعظم في عينك ، ويكبر شأنه في صدرك ، وتعظم منزلته عندك ، ويأخذ بقلبك كله ؛ فهذه الأشياء لو اجتمعت في رجل واحد كانت عارية ، وهي عطاء من ربه ، فعندئذ لا يكون من ملكه رأس إبرة وهو مخلوق يفنى ويبلى ، فكيف بالعالم الذي لا يشبه علمه وغناه ، وجوده وكرمه ، وحلمه ومجده ، وبهاؤه وجماله ، ورحمته ورأفته ، وقوته وقدرته ، وسلطانه وبصره بالأشياء ، شيئاً مما عند الآدميين ، وإنما اتفقا بالاسم ، فأما الأشباه فتعالى ربنا رب العالمين عن أن يشبهه شيء من خلقه ؛ فإذا عرفت هذا من ربك فكيف يكون على قلبك أموره ، ووعدته ووعدته ، وضمانه وكفالاته وقوته ؟ فمن استنار قلبه بالمعرفة سكن قلبه واطمأن إلى ربه ، ووثق بقوله ، فعظمت منزلة المؤمنين عند الله تعالى ، حين قبلوا الإيمان بالجملة ، ثم استأداهم الوفاء به عند النوائب ، فمنهم من وفى ، ومنهم من سقط ، وبقى في الطريق ، فأظلم عليه الهوى ، ووقع من التخليط في الذنوب ؛ ومنه ما حذر الله صفيه داود عليه السلام ، فقال : « إنا جعلناك خليفة في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك

كان مسلما ، لأنه سأله أن يعلمه غرائب العلم ، وأنه كان أخبر بتلك المعرفة ؛ فلما سأله : هل عرفت الرب ؟ أجابه عن معرفته ، فلما سأله عن الامتحان عما صنع في حقه ، انقطع الرجل ، فقال : ماشاء الله .

وما جاء عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حدثنا بذلك صالح بن محمد ، قال : حدثنا القاسم العمري ، عن عاصم بن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، عن أبيه : أن رجلا أتني على رجل عند عمر رضى الله عنه ، فقال : صحبتته في سفر ؟ فقال : لا . قال : فآتمنته على شيء ؟ قال : لا . قال : ويحك ! لعلك رأيته يخفض ويرفع في المسجد .

ومثل ذلك عندنا مثل رجل رأى قوما لم يعرفهم إلا بالوجود هكذا ، فتعرف أحوالهم ، فوصف له رجلا رجلا ، ف قيل له : أما هذا الواحد فهو عالم لا يوجد له في الدنيا نظير ، لتبحره في العلم ، فعظم في عينه ، وأخذ من قلبه شعبة ؛ ثم قال له : هذا الرجل الآخر غنى ، لا يوجد له في الغنى نظير ، فعظم في عينه ، وأخذ من قلبه ؛ ثم قيل له : وهذا الآخر كريم ، لا يوجد له في الكرم نظير ، فعظم في عينه ، وأخذ من قلبه ؛ وقيل له : هذا الآخر صانع الأشياء ، لا يوجد له نظير في كل صناعة ، فعظم في عينه ، وأخذ من قلبه ؛ قيل له : وهذا الآخر كليل ، يكفل الأراامل والأيتام ، والضعفاء والفقراء ، لا يوجد له نظير في رأفته ورحمته ، فعظم في عينه ، وأخذ بقلبه ؛ ثم قيل له هذا الآخر شكور ، عارف بالحقوق ، إن أتيت أدنى شيء شكرك الكثير ، ونشر عليك الجميل ، فعظم في عينه ، وأخذ من قلبه ؛ ثم قيل له : ولهذا مملكة وعز ، ومنعة وسلطان ،

بربه ، يعبد به الهوى ، كما هوى أمراركيه ، وكذب فيما يقول إني أريد به الله . وإنما أتى فساد الخلق من إهمال النفس ، وترك تأديبها ، وقلة النظر فى أمر الله تعالى ، وجهلهم به ، فلو عرفوه لاستراحوا من خدع النفس ودواهيها ، لأن النفس إنما تطمع بمخادعة من يجهل ربه ، فأما العلماء بالله ، العارفون بالنفس ، والشيطان أقل وأذل هناك أن يطمعها فى خدعهم ، لأن النفس إنما تظلم وتوسوس على القلب الشهوانى ، الذى قد أسره الهوى ، وليس لنور الطاعة فى القلب ما يغلب الهوى والشهوات ، وإنما القوة الغالبة نور المعرفة ، فمن استنارت معرفته كانت أموره على بينة ومعانية ، وذلك قوله تعالى : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ^(١) . . . » الآية ، فوصف رسول الله صلى الله عليه وسلم علاماته بالإنبابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله ، ومنه قول حارثة : كأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عرفت فالزم ؛ من سرّه أن ينظر إلى عبد نور الله الإيمان فى قلبه فلينبظر إلى هذا . وما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال له رجل : علمنى غرائب العلم . قال : ما صنعت فى رأس العلم ؟ عرفت الرب ؟ قال : نعم . قال : فما صنعت فى حقه ؟ قال : ما شاء الله . قال : هل عرفت الموت ؟ قال : نعم . قال : فما أعددت له ؟ قال : ما شاء الله . قال : اذهب فتعلم رأس العلم ، ثم تعال أعلمك غرائب العلم . أفلا ترى أنه أمره بتعلم المعرفة ، وسماه رأس العلم ، فقد

والتهابها ، فحينئذ تتخلص أنوار القلب ، ويقوى ويعمل العقل عمله ،
 ووجدنا فى مبلغ علمنا أن الذى جاء فى الحديث عن رسول الله صلى الله
 عليه وسلم ، أن النار تنادى يوم القيامة للمؤمن : جز يا مؤمن ، فقد أطفأ
 نورك لهبى ؛ هذا معناه أن من عالج شهوات نفسه وهواه حتى يقررها
 وتتخلص أنواره ، ويقوى على قلبه ، فقد أطفأ نور قلبه نيران شهواته
 المظلمة بالهوى ، فهو النور يوم القيامة^(١) ، حتى يطفى ذلك النور لهب
 النار عنه ؛ ومن لم يعالج هذا من نفسه ، وخرج من الدنيا مع هذه النيران
 سوداء مظلمة ، خفت من ألا يقوى نوره على أن يطفى لهب النيران
 على الصراط ، لأنه لم يكن له نور على القلب يطفى نيران شهواته ،
 وخرجت منه أعمال البر محترقة ، مخلطة برياء ، لأن عامة ما يعمل من
 الطاعات إنما يعمل بهواه ، وبما يخف عليه ، وبما تنشط له النفس
 وتستحليه ، لا ينظر إلى ما يختار الله له ، ولا يقبل عمله من ربه ، إنما هو
 عامل لربه على التملك والافتدار ، والاختيار للأحوال ، حتى ربما حمله
 ذلك على ترك الواجب ، فى جنب ما يتطوع به ، وهذا موجود فى الخلق ،
 ترى الرجل يصلى بالليل ، ويعق والديه ، ويصوم النهار ، ويسوء خلقه
 فى شأن فطوره وسحوره ، ويعتاق الناس ، وينفق فى أعمال البر ،
 ويكتسب الشبهات ، ويعود المرضى ، وينقل الجنائز ، ويؤذى المسلمين ،
 ويطلب عوراتهم ، ويود الأبعاد ، ويقطع الأرحام ، فهذا رجل جاهل

(١) جاءت هذه العبارة فى الأصل هكذا : « فهو الذى يوم القيامة النور » .

إلى آخر الآية ؛ فبين أن القشعريرة إنما هي من الخشية ، فإذا ذكروه في كرمه وجوده ، ورأفته ورحمته ، لانت جلودهم وقلوبهم .

قال له قائل : فما بالناسم هذا العلم فنفسه ونعله ، ولا يبقى على القلب منه شيء ؟ قال : لأن نيران الشهوات في الخوف قد التبت ، فهي نيران سود ، مظلمة بالهوى ، وهي مؤدية إلى نار الله الكبرى ، فإذا التبت ارتفع إلى القلب ، وأحرق تلك الأنوار ، فخلا القلب من الموعظة والعلم الذي عليه ، وهي شبيهة بالنار التي تلهب حرمتها ، فتحتاج إلى ماء كثير حتى تطفئه ، كما ألقيت عليه قبضة من شيء ، أو رششت عليه قليل ماء ، انطفأ قليلاً ثم التبت ، فكذلك صاحب الشهوة ، إذا سمع الموعظة ذبل قلبه ، وتخسفت نفسه ، لما يصل إليه من الخوف ، لأن الوعيد مما تنكسر به النفس ، وتخمد شهواتها ؛ ألا ترى أن الرجل يكون في لذة من لذات الدنيا ونشاط ، فإذا بلغه وعيد من السلطان انكسر ، وذهب نشاطه ، فوعيد الله تعالى لو خلص إلى القلب ، لكانت النفس والشهوات أشد انكساراً ، ولكن لا يصل ذلك إلى القلب ، فهو صلب أبداً ، فرح مرح ، أشربطر ، فهو ينور بلهب ، وإنما يطفأ بالماء الكثير الغالب ، وهو العلم المؤدى إلى الخوف والوعيد ، وليس يوجد هذا ، فما الحيلة في ذلك ؟ قال : إنا لا نعلم له حيلة ، إلا أن يمنع من إلقاء الخطب عليه ، فإنه متى زاده وقوداً انتقد ، ونار والتبت وقوى ، ومتى ما حبس عنه وقوده خمد ، حتى يصير رماداً ، ويذهب حر التنور ؛ كذلك ههنا ، يحبس عنها الشهوات حتى تخمد ، فتذهب فورتها

به ، فإذا ذكر المنة غرق ، وإذا ذكر العافية قلق ، وإذا ذكر حلول الأجل شرق ، وإذا ذكر العيوب عرق ، وإذا ذكر الرعاية والكلالة ومق ، وإذا رأى اللذات في الطاعة مثق ، وإذا ذكره تثق ، وإذا حن إليه واشتاق غرق في أثقال المنة ، وعظمت آماله فيما لديه ، وقلق من خوف زوال الإيمان ، وشرق بغصته من حلول الأحران ، لطول الحبس عنه في دار الدنيا ، وغرق من الحياء لما يرى من عظيم بره ولطفه ، وجميل نظره ، وحسن عوائده ، ومن جميل صنائعه ، ومن هرب النفس منه ، وإعراضه عن حقوقه ، وإظهار جفوته ؛ وهو من عظيم عطفه عليه في كلالته ورعايته ، واصطناعه إليه ؛ ومثق لما يرى من فتح باب الدعة ، وإكرامه بالطاعة ، وتقريبه إياه بما يمكن له من الخدمة ، وتثق من طول الغربة ، وشدة الحنين ، فأنسه به ، وسكونه إليه ، وهو ملجؤه وثقتة ، وكهفه وسنده ورجاؤه ، لا يتهمة على نفسه ، ولا يسىء به الظن في نوائبه ، بحسن معرفته بر به أنه غفور رحيم ، ودود حميد مجيد ، واحد صمد قيوم ، كفيل وكيل ، جواد كريم ، حنان منان ، حي لا يموت ، لطيف بعباده ، بر رحيم ، شكور غفور ، حلیم غفور ، معروف بالمعروف ، محسن مفضل ، فضله عظيم ، إحسانه دائم ، كرمه ظاهر ، فاطمأن قلبه ، كما وصفه ربه ، فقال تعالى : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، إلا بذكر الله تطمئن القلوب ^(١) » . وقال الله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث ^(٢) »

(١) سورة ١٣ ، آية ٢٨ .

(٢) سورة ٣٩ ، آية ٢٣ .

فى دار الدنيا ؛ فالقلب الموقن ، صفته إذا تناول النعمة ، فكأنما يتناولها من خالقه ، فيأخذها بحياء ، ومرة بحلاوة ، ومرة بمهابة ، ومرة بخوف ؛ وإذا نزلت به بلية أبصر بنور يقينه إلى أموره ، اختار له هذا ، فظن به أحسن الظنون ، لأنه أيقن أنه به أرحم منه بنفسه وأرأف ، فآتمن ربه ، واتهم نفسه ، وقال : ربى أعلم بما اختارك ، فإن لم أصلح على اختياره وتقديره ، لم أصلح على اختيارك وتقديرك أيتها النفس ، واختيارك أنزل بى هذه البلية لإحدى خلال : إما تكفيرا لخطيئة استوجب بها هذا العذاب الأكبر ، وإما رفع لى درجة يقربنى إليه ، وإما بينهما لأمر عظيم ، أو عصمنى من ذنب ، أو صرف عنى داهية ، أو عاجلنى بعقوبة ، لأن يرفع عنى عقوبة الآخرة ، ففى كل هذا خير . وأما العارف فإنه أجمله ، فقال : هو مشيئة ربى ، فمشيئته أجلى عندى وأعظم على قلبى ، من نفسى وجميع جوارحى ، وهؤلاء قوم ولهت قلوبهم لديه ، فصارت أحكامه التى رضىها لهم منية قلوبهم ، من إجلالهم له وإعظامهم .

عرنا الى صفة الموقن :

وإذا ذكر الرزق وثق بالضمان ، واطمأن بوفائه ، فإن طلب طلبه مع سكون القلب ، على حد ما أمر به ، فإذا عرض له فى ذلك شىء يكون فيه نقصان من حظه من الله تعالى ، أعرض عنه ، وتوجه إلى ربه ، ينتظر من أين يفتح ؛ والعارف تخلص من هذا كله ، من الضمان والوفاء ، وشغل عن طلب الرزق بالرزاق ، فقلبه فى البحر الأكبر ، قد تعلق قلبه

(٩)

جنان ؛ والحارث في الفردوس الأعلى . فرجعت وهي تضحك وتقول :
 بخ بخ لك يا حارثة .

أفلا ترى أنه لما راض نفسه بأن قال : عزفت نفسي عن لذات
 الدنيا وشهواتها ، فكأنني أنظر إلى عرش ربي ، فصارت الأمور الغائبة
 عنده معانية ، فعمل على الحقائق ، وذهب الجهل ، لأنه من نصب وتعب
 وعمل على المعانية ، زال الجهل عنه ؛ ومن عمل على غير المعانية ، فهو في
 جهد عظيم ، ومخاطرة عظيمة من قبل نفسه ، إلا من عصم الله تعالى ، لأنه
 كالسائر في الظلمة : أحيانا يمشي ، وأحيانا تنهشه حية ، أو تلدغه
 عقرب ، لا يبصر أين يضع قدمه ، فهذه مخاطرة .

وأما جهده ثقل نفسه ، فإنما ثقل أنه لم يعان ماثرة هذه الأمور ؛
 هو بمنزلة رجل قيل له : احمل هذه الحمولة ، فنقل عليه ، فهو يجد ثقلها
 على فؤاده ، ف قيل له : احمل ، وذاك هذا الدينار ، فاستمر بالحمولة ،
 ونهض بأعباء ثقلها ، فوجد خفة الحمولة ، لأنه قوى القلب بما عان من
 الدنيا ، فقويت الأركان ؛ أو قيل له احمل هذه الحمولة ، فنقل عليه ،
 فعلاه بالسيف أو بشعلة نار ، فخلص إليه الخوف ، فاحتمله ، فوجده
 خفيفا ، لأن القلب قد عزم على احتماله ، هربا من السيف ، أو قيل له
 احمل هذه الحمولة ، فنقل عليه ، ف قيل له : هذا الملك وأنت بعينه ينظر
 إليك ، فوجد القلب قد انتقل عن حالته ، إجلالا للملك ، فاستمر بالحمولة
 وقوى القلب ، فإنما أدرك حمل هذه الحمولة بما عان ؛ فكذلك صاحب
 النفس قد عان وشاهد قلبه ، مما هو أكثر مما هاهنا من معانية بصر الرأس

فعالج قلبك حتى تعتقه من رق النفس بما وصفت ؛ فإذا كان كذلك صفا قلبك من كدورة الأخلاق ، وطهر من شهوة الآثام ، فاستقر اليقين فيه ، لأن اليقين لا يستقر حتى يرى مكانا طاهرا ، فتحيا القلوب وتصلب ، لأنه من الله ، قد قرب عبده واصطفاه ، فيصير حينئذ ماغاب عن العين من أمور الآخرة ، وأمور الملكوت ، بعين قلبه ، فهو كالبرق في ليلة ظلماء ، إذا برقت أبصرت بعين رأسك جميع ماغاب عنك في تلك الظلمة ، من بئر أو جرف أو واد ؛ أو ما ترى إلى حديث حارثة ؟ حدثنا بذلك عبد الجبار بن العلاء ، قال : حدثنا يوسف بن عطية ، عن أنس ، قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى إذا استقبله شاب من الأنصار ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمنا بالله حقا ، قال : فانظر ما تقول ، فإن لكل قول حقيقة . قال : يا رسول الله ، عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري ، وكأني بعرش ربى بارزا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاوون ، وكأني أنظر إلى أهل النار كيف يتعاوون فيها . قال : عرفت فالزم . عبد نور الله الإيمان في قلبه . فقال : يا رسول الله ، ادع الله لى بالشهادة . فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنودى يوما فى الخيل ، وكان أول فارس استشهد ، فبلغ أمه ، فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله ، أخبرنى عن ابنى ، إن يك فى الجنة لم أبك عليه ولم أحزن ، وإن يك غير ذلك بكيت عليه ما عشت . قال : يا أم الحارث إنها ليست جنة ، ولكن جنة فى

إنما كان أصله من تعظيمه الدنيا، وحلاوتها في قلبه، وحبها لها؛ وكان سبب نجاته من هذه الآفات برحمة الله رياضته هذه النفس، بمنع الشهوات منها.

- وهذا في الآثار موجود قائم عن السلف، قد سارت به الركبان،
- من غير وجه؛ حدثنا محمد بن سهل، قال: حدثنا عمر بن منصور القيسي قال: حدثنا عبد الواحد بن زيد، عن الحسن، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه ذات يوم: «ماذا تقولون في صاحب إذا أتم أكرمتوه ورحمتموه وأطعمتموه وسقيتموه، دعاكم إلى شر غاية؛ وإذا أتم أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه وأعطشتموه وأتعبتموه، دعاكم إلى خير غاية؟ قالوا: يا رسول الله، هذا شر صاحب في الأرض. قال: إي، والذي بعثني بالحق، هي أنفسكم التي بين جنوبكم». وحدثنا صالح
- ابن محمد، قال: حدثنا أبو مقاتل، عن ابن عون بن أبي راشد، عن الحسن رضي الله عنه، قال: بلغنا عن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، قال في خطبته: «لا تضرين بكم الشهوات، فإنها أشد حرا في الجوف من النار، وأشد سكرا من الخمر، وإنكم لا تدركون ما تأملون، إلا بالصبر على ماتكرهون، ولا تنالون ما تحبون، إلا بترك ما تشتهون».
- حدثنا عمر عن سهل بن تمام، عن عمار بن منصور، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: طهروا قلوبكم بقلة الطعام تصفو، فترق وتصلب وتستغف؛ فصفواؤها لله، وصلابتها في الدين، ورقبتها للاخوان، واستغافها في ذات الله تعالى.

ماظهر منها وما بطن ، والاثم والبغى بغير الحق ^(١) . فالبغى فى الشئ
 الحلال حرام ، والفخر حرام ، والمباهاة حرام ، والرياء حرام ، والسرف
 حرام ؛ فإنما أوتيت النفس هذا المنع من أجل أنها مالت إلى هذه الأشياء
 بقلبها ، حتى فسد القلب ، فلما رأيت النفس تتناول زينة الله والطيبات
 من الرزق ، تريد بذلك تغنيا أو مباهاة أو رياء ، علمت أنها خلطت
 حراما بحرام ، فضيقت الشكر ، وإنما رزقت لتشكر لا لتكفر ؛ فلما
 رأيت سوء أدبها منعتها ، حتى إذا ذلت وانقمعت ، ورأى ربى مجاهدا فى
 ذاته حق جهاده ، هداى سبيله كما وعد تعالى : « والذين جاهدوا فىنا
 لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين ^(٢) » . فصررت عنده بالمجاهدة
 محسنا فكان الله معى ، ومن كان مع الله فمع الفئدة التى لا تغلب ،
 والحارس الذى لا ينام ، والهادى الذى لا يضل ؛ وقذف فى القلب من
 النور نورا عاجلا فى دار الدنيا ، حتى يوصله إلى ثواب الآجل ؛ ألا ترى
 إلى ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا قذف النور
 فى قلب عبدا نفيح وانشرح . قيل : يا رسول الله ، فهل لذلك من علامة ؟
 قال : نعم ، التجافى عن دار الغرور ، والإجابة إلى دار الخلود ، والاستعداد
 للموت قبل نزوله » ؛ وإنما تجافى عن دار الغرور ، بما قذف فى قلبه من
 النور ، فأبصر به عيوب الدنيا ودواهيها وآفاتمها وخدعها وخرابها ، فغاب
 عن قلبه البغى والرياء والسمعة والمباهاة والفخر والخيلاء والحسد ، لأن ذلك

(١) سورة ٧ ، آية ٣٣ .

(٢) سورة ٢٩ ، آية ٦٩ .

فسهوت ولهوت عن ربك الكريم ، الذى خلقك فسواك فعدلك ،
وجعل صورتك ، ودعاك فأعطاك وحباك ، وأملك ومناك ، ومن عظيم
الخطر ومن ظلمة الكفر نجاك .

فهذا الذى وصفنا من تركك الشهوات ، وتجنبك اللذات ، ليس
تحریم الذى أحل الله لك ، ولكن تأديب^(١) لنفسك ، ورياضة لها ، لأن
هذه النعم إنما أمرت وأذن لك فى تناولها ، على الأدب الذى أدبت به
على لسان الكتاب والرسول ؛ فلما ساء أدبك لما فيه من أخلاط السوء
التي مالت بك ، لم تجد بدا من أن تعظمها مرة ، حتى يجد القلب فراغا
إلى تعلم الأدب ، فتأخذ طريقا ؛ فأما قلب معلق بالشهوات ، مأسور
باللذات ، مقهور بالمنى ، محبوس فى سجن الهوى فى بئر مظلم ، فكيف
يمكنه أن يتناول ما أعطى بإذن الله ؛ فإن بعض من خفى عليه هذا النوع
من العلم ، كبر فى صدره هذا ، حتى ربما يفرح إلى الاحتجاج بقول الله
تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا
تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين^(٢) » . وبقوله تعالى : « قل من حرم
زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق^(٣) » . فهذا من
الاحتجاج تعنيف ، ومن القول تحريف ، لأننا لم نرد بهذا التحريم ،
ولكن أردنا تأديب النفس ، حتى تأخذ الأدب ، وتعلم كيف ينبغي أن
تعمل فى ذلك ؛ ألا ترى إلى قوله جل وعلا : « إنما حرّم ربى الفواحش

(١) فى الأصل : تأديبا .

(٢) سورة ٥ ، آية ٨٧ . (٣) سورة ٧ ، آية ٣٢ .

وأبيض ، وهو الليل والنهار ، حتى تؤدبك إلى الخلق الباري ، المنيب
 المعاقب ، فتعظم ماصغر الله ، وتكرم من أهانه الله ، وتدنى من أقصاء
 الله ، وتعلق بمن لا بد أن تفارقه ، وتعمر ماأذن في خرابه ؛ فإذا ذهب
 ثمراتها حبست عنها الفكرة فيها ، والحديث عنها ، والتذكر لها ، حتى
 تبيس ، ثم لاتزال تمنية شهواتها قائمة بينك وبين ربك ، تفرح بالعبء ،
 وترضى بما تعطى به ، وتروم ما لم تعط ، وترى نفسها في الأشياء ؛ فهي
 تحببك وتشغلك ، حتى إذا من الله عليك بنور اليقين ، فهي كالبرقة ،
 كما تشعل شجرك^(١) نارا ، فيذهب أثره وذكره ، كذلك البرقة تحرق قائمة
 نفسك ، فيذهب أثرها وذكرها ، ويبقى والها منفردا به ، فتكون الأشياء
 والأمور منك له وبه ؛ فإذا أهملتها ، وعجزت عن رياضتها ، رجعت
 عليك بوبال عظيم ، تعرض عن دار دعاك إليها رب العالمين ، فقال تعالى :
 « والله يدعو إلى دار السلام^(٢) » ، أمنك من آفات ، فنسبها إلى اسمه
 السلام من بين الأسماء ؛ يعلمك أن لسكانها السلامة من الآفات ، محشوة
 بالنعيم ، مشحونة بالرضوان ، وتلهي عنه باللعب والباطل ؛ كفى بهذا
 عارا ، وأنت عبد سخر الله لك الخلق والخلقة لم تنل حتى تكون
 ماعشت قائما بتربية حقوقه ، ناظرا لأُموره ، معظما لشأنه ، ذا كرا له ،
 ناشرا عنه الجميل ، مشتاقا بقلبك إلى لقائه ؛ فأقبلت على تربيتك نفسك ،
 وطلبك لها العز والجاه ، والمنزلة من الخلق ، والذكر على الألسنة ؛ فهذه
 ربوبيته ، فكيف تتفرغ للعبودية من طلب الربوبية ؛ فاشتغلت عنه ،

(١) في الأصل : شجرتك . (٢) سورة ١٠ ، آية ٢٥ .

القلب وقسا وييس ، تخف عن ذكر الله ، ولهى عنه ، فالمشروح صدره
للإسلام ، شرحه ربه « فهو على نور من ربه ، فويل للقاسية قلوبهم
من ذكر الله » فهدت النفس آلتها ، فصارت في سلطانها ، كما يحمى القوس
حتى تلين ، ويتخلى عن البيت الأول .

كذلك تراض النفس بأن تحمى ، وهو أن يمنعها اللذات
والشهوات ، فتحزن ، ويصيبها حرقات منع الشهوات في مصائبها ،
فبتلك الحرقات تذلل وتنقع ، وتلين وتتخلى عن القلب ، فيرجع القلب
إلى مكانه بنور المعرفة ونور العقل ونور العلم ونور فوائذ العطايا ؛ فكلما
منعت النفس شيئا من هذه الشهوات ، خلت عنه كما وصفنا ؛ وكلما
أعطيت النفس منيتها قويت ، فصارت كالشجرة تثمر الحنظل والدفلى
والمر والصبر والسوم القاتلة ، فإن أردت ألا تنمو ، فالتدبير فيها عقل العبد
وفهمه ، أن تحبس عنها الماء والسريق والتراب الذى يلقى في أصله ، حتى
تبيس ، فتصير جذعا لا تثمر ولا يرجع عليك بالضرر ؛ ثم لا يزال جذعا
يعترض بين عينيك ، يشغلك عما سواه من الأشجار ، فتشعل فيه نارا ،
حتى يذهب شخصه من بين عينيك ، فإذا هو قد ذهب أثره ، وذهب
ذكره .

وكذلك النفس : في التدبير أن تحبس عن النفس لذاتها
وشهواتها ، حتى تذهب ثمراتها من هذه السموم القاتلة ، التى تميت قلبك
في الدنيا ، فتصير أعمى من العميان في الدنيا بصيرا في دين الله جل وعلا ،
فتقبل على مزبلة وهى الدنيا ، وإنما هى قنطرة ، تداولتك أيدي أسود

إذا تركتها حتى تقوى شهواتها ، ويشد حرها في الجوف ، وتقوى
 ظلمة الهوى ، أخذت من البيت الأعلى ، وهو نور العقل ونور المعرفة
 ونور الروح ونور العلم ، فتحرق بنيران الشهوات ، من هذه الأنوار التي في
 القلب بقدر قوتها ؛ وإذا قويت بنيران الشهوات ضعفت الأنوار ،
 فيظلم الهوى على اليقين ، فيتولد الشك على القلب من هذه الآفات ،
 فتغلب على القلب هذه الآفات ، فمن ههنا يصرع ، فهذا هو القلب
 المصروع ، والمأسور في يد هواها ؛ ^(١) قلما خرج منه عمل من أعمال البر ،
 ثم لم يصب الغرض ، فوقعت رميته يمينا وشمالا ، وربما خرج منه فلم يبلغ
 الغرض لضعف القوس ؛ وذلك أنه رمى عن قوس قد أصابتها الآفات
 والعلل ؛ فكذلك آفة القلب الذي وصفنا ، ربما أردت برا ، مال بقلبك
 الهوى إلى الشهوات يمينا وشمالا ، حتى تحيد عن السبيل والسنة ، وربما
 جاوزت الغرض ، وربما ضعف قلبك ، فعملت بغير نية ، فلم يبلغ عملك
 إلى ربك ، كما قصرت الرمية عن الغرض ؛ أفلا ترى كيف تعالج
 القوس وتحمي حتى تلين ، فإذا لانت سويت ، حتى يرجع البيت
 الأعلى إلى مكانه ، وإنما زال عن مكانه لأن البيت الأسفل لما قوى
 وصلب مد بالبيت الأعلى بفضل قوته ؛ فكذلك النفس لما قويت
 وصلبت شهواتها ، انتشرت وهاج هواها ، فأحرق أنوار القلب ،
 والقلب هو رطب الأنوار ، لأن النور هو من الله تعالى رحمة ، والرحمة
 باردة ، والقلب لين منقاد برطوبة تلك الأنوار ، فإذا احترق النور صلب

(١-١) في الأصل : قلما خرج من ، وهو تحريف .

الذهب ساقط المنزلة عن القلوب . ألا ترى أن عمر رضى الله عنه أراد أن يتخذ الدراهم من جلود البقر .

فإنما ينبغي لك أن تفضل عندك شأن الدينار والدرهم ، بما أنزل الله لاهواءك ، ألا ترى لو أن رجلا أتى سمرقند بعض هذه الكور التي تجوز فيها هذه الفلوس ، كان للفلوس عنده قدر ، إن افتقدها حزن ، وإن وجدها فرح ؛ فإذا تحول إلى كورة لا تجوز فيها تلك الفلوس ، فلو رمى بها لم يبال ؛ فهذا مما يدل أن الذهب إنما عظم موقعه من القلوب لعظم منفعته ، بأنه صار ثمنا للأشياء ، فمن أجل ذلك بغض الله تعالى كثيرا من الناس من أجل أنهم رأوا منفعة الأشياء من الدينار والدرهم ، لا من الله عز وجل .

فينبغي لك أن تروض نفسك وتقطعها عن هذه الأشياء ، حتى يصفو قلبك ، ويسير باليقين ، حتى ترى الدينار والدرهم خلقين من خلق الله تعالى كسائر الخلق مبتدعا ، ثم تنزلها بالمنزلة التي أنزلها الله تعالى ، فبإنزاله يفضلهما ، ويرى المنفعة التي فيهما من خالقهما ، فحينئذ يستوى عندك حالهما ، في أنهما خلقان من خلق الله تعالى ، فهذا عندنا معنى قول عيسى ابن مريم عليهما السلام .

فإذا غفلت عن النفس بعد رياضتها ، فلا تأمن أن تعود إلى بعض عاداتها مادامت الشهوات منها حية ، والهوى قائما ، ألا ترى أن القوس إذا ترك استعمالها وتعاهدتها وعثقت ، كيف يأخذ البيت الأسفل من البيت الأعلى ، فكما رميت بها سهمها أخطأ الغرض ، كذلك النفس

عن نفسه أنه قال : وجدت الدنيا أربعة أشياء ، فما زال يروض نفسه حتى أطاعه الهوى ، حتى قيل له حيث يريد الشام : كيف تبكي على أهل مصر ؟ قال : لأن بها إخواني ، وبها كثرة تجاوب المؤمنين ، وبها ظمأ^(١) المهاجر . قيل له : فقد أذن لك ، أفلا ترجع ؟ قال : أكره أن أرتحل رحلة هوى .

وكما روى عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى ، أن رجلاً قال لمعلمه : قد قطعت الهوى . قال : أتفرق بين النساء والدواء ؟ قال : نعم . قال : فأنت أوثقت الهوى ولم تقطعه .

وكما روى عن عيسى ابن مريم عليهما السلام : هل يستوى عندكم هذان : كف من تراب ، وكف من ذهب ، قالوا : لا . قال : فهما عندي سواء . فهذا قطع الهوى .

قال له قائل : اشرح لنا هذا . وكيف يستوى هذان في قلب ؟ قال : إن الناس إنما فرقوا بينهما ، وفضلوا الذهب على التراب بالهوى ، لما رأوا منفعة الذهب ، فضلوه من أجل المنفعة ؟

فينبغي لمن أراد التخلص من هذا ، أن يروض نفسه ، حتى يرى بنور اليقين الأشياء كلها مستوية ، بمعنى أنها خلق الله تعالى ، ثم يرى المنازل التي أنزلها الله تعالى ، فبإنزاله إياها بين لها تلك المنزلة موافقة له ، ولو شاء جعل المنفعة التي في الذهب ، في الزجاج وفي الحجر ، ولما كان

(١) في الأصل : « فما » .

ومن آية قواه أنه قوى الحمة ، وأنه جيد ؛ وذلك الردىء للغشوش
يريك حمرة مادام كثير القدر ، كثير الوزن ، مجمع القوى ، فإذا حركته
بمحجر ، فبقى الذى على الحجر ، رأيت أنه أصفر ، ففرت أنه ليس بجيد .
فكذلك القلب لا يتبين ما فيه حتى يفطم ، ويريك أنه قد صفا
بالفطام ، فحينئذ يحك بمحجر البلوى ، فيختبر سكونه بمن ، وإلفه مع من ،
أبا لله سكونه ومعه ألفه ، أم لعطائه سكن ، ومع أحوال نفسه ألف ؟
فالحك هو النقصان ، فمن كان سكونه به ، وإلفه معه ، لم يتغير للنقصان ،
أعنى نقصان العطاء ، ولجزيله ، لأنه للنقصان والتجزيل يبين إلى
ماسكنت ، وهل قطعت الهوى ، فهذه منزلة عبادتك له بما هو أهله ،
وهو الذى يقال له : اعبد الله باليقين لا بالهوى ، واليقين عقيب الهوى ،
فكل ما نقص من هذا ازداد من ذلك ، فها يتعاقبان أبدا . ويقال :
الصبر صبران : صبر على الشدائد ، وصبر على ما يدعوك إليه الهوى ،
طاعة كانت أو معصية ، فإذا فطمت نفسك عن طاعة الهوى ، حتى صار
لك عادة ألا تطيع الهوى في شيء من الأشياء ، وإن أيسح لك ذلك
الشيء ، استنار قلبك باليقين ، وهو نور مشرق فى الصدر ، وعينك
تنظر إلى ذلك النور ، ونفسك يقظان ^(١) بقرب الله عز وجل ، كما قال
عامر بن عبد قيس رحمه الله : ما وقع بصرى على شيء إلا رأيت الله
أقرب منه . وروى عن محمد بن واسع رحمه الله تعالى نحو من ذلك ،
وإما أدرك عامر هذه المنزلة ، لأنه راض نفسه حتى صار بحال - حكى

(١) فى الأصل : « يقظان » . ولعل صوابه : يقظلى .

وأرق أفئدة ، فوصف القلب باللين ، والفؤاد بالركة ، فالنور إذا خرج من باب القلب أشرق في الصدر ، فأبصر عين الفؤاد ذلك النور ، فإذا فكر في الجنة أو النار، أو في شيء من أمور الآخرة ، وقع لتلك الفكرة ظل على الصدر^(١) ، فتمثل ذلك الشيء بين عيني القلب ، فصار كأنه ينظر إليه ، وإذا ذكر الرب تبارك وتعالى لم يقع لذكره ظل على الصدر ، ولكنه يشرق النور ، ويتلألأ النور في الصدر ، حتى يكاد يغشى بصر القلب ، لأن النور إنما أشرق في الصدر ، لأنه نوره ، فإذا ذكر الأشياء ، فالأشياء مخلوقة ، فوقع للأشياء ظل ، وإذا ذكره تلاً النور ، ولم يقع في الصدر ظل ، وهو بمنزلة قنديل معلق في البيت ، فحائط البيت يشرق عليه نور الصباح ، فإذا رفعت يدا أو شيئاً بين الحائط وبين المصباح ، وقع لذلك الشيء على الحائط ظل ، وتمثل ذلك الشيء ، فإذا رفعت بين المصباح وبين الحائط مصباحاً^(٢) آخر ، ازداد ذلك إشراقاً وضياءً ، ولم يتمثل على الحائط صورة ، ولا وقع ظل ، فهذا شأن القلب .

فإذا حمى القلب بالقطام من الهوي فصفا ، صار كالذهب يخرج من النار ، فينثذ يحك بالحجر ، اختباراً لجودته . وذلك أن الذهب لاجتماعه وكثرته ، أراك لون حمرة ، بقوة بعضه من بعض ، وانضمام بعض إلى بعض ، فإذا حككت منه شيئاً بحجر ، وبقي بالحجر من ذلك شيء لطيف رقيق ، تبين لك جودته أنه يريك في حال الضعف والركة ،

(١) في الأصل : « الصد » .

(٢) في الأصل : « مصباح » .

نور معرفتك ، ونور إلهك الذي هو نور السموات والأرض ونور كل شيء ، فإذا أقبلت على الله تبارك اسمه ، أشرق القلب بالنور ، فذلك اليقين ؛ وإذا كان المرأة صدأ فقلب بها إلى عين الشمس ، لم يشرق في البيت منه شمس ، لأنه قد حال بين نور المرأة ونور الشمس ذلك الصدأ ، فكذلك القلب إذا أقبلت على الله تعالى وعليه الهوى ، لم يشرق بالنور الأعظم ، لأن الهوى قد حال بين نور المعرفة وبين النور الأعظم ، وهو اليقين ، فإذا ذهب الهوى ، فنظرت له ، تلاقى النوران ، فأشرق في صدرك ، فأبصرته عين قلبك ، فصار يقينا . واليقين في لغة العرب هو الشيء المستقر الثابت ، تقول العرب : قد يقن الماء في الحفيرة .

قال له قائل : اشرح لنا صفة القلب .

قال : القلب بضعة من لحم ، في جوف بضعة أخرى ، وهو الفؤاد ، ومعدن النور القلب ، ومنه قيل خبز فئيد ، لأنه في جوف الرماد الحار والجر ، فالبضعة الخارجة هي الفؤاد ؛ وإنما سمي قلبا لأنه يتقلب ، وله عينان وأذنان وباب ، والصدر بيته ، وإنما سمي صدرا لأن الأمور تصدر عنه ، فالنور الذي في القلب يعرف ربه ، لأنه نوره ، وهو حبة القلب ، واشتقاق الحب منه ، لأنه وصل حبة قلبه ، ومنه قوله عز وجل : « حبيب إليكم الإيمان ^(١) » ، أى أوصله إلى حبة القلوب ، ثم قال تعالى : « وزينه في قلوبكم » ولم يقل في فؤادكم ، ومما يحقق ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتتكم أهل اليمن ، هم ألين قلوبا ،

(١) سورة ٤٩ ، آية ٧ .

قلبك ، فذابت تلك الأخلاط عن قلبك ، وطهر قلبك ، وخرج صافيا كما خرج الذهب الذي أحمى ، قهافت عنه تلك الأوساخ والأدناس ، لأن الهوى على القلب أوساخا وأدناسا ، كما كان للمعاصي على القلب نكت سود ، على ما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : إذا أذنبت العبد نكت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا عاد نكت أخرى ، فإذا تاب ونزع صقل قلبه ، ثم تلا : « كلا ، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ^(١) » . فإذا ذهبت المعصية بالتوبة ذهب سواده ، وبقي دخانه ، وذهب الشيطان ، وبقي ظله ، كما ذهب الليل وبقي سدفه وآثاره عند وجه الصبح ؛ فإذا تاب عن المعصية وهو ممن يستعمل الهوى ، فالهوى باق بعد ، فهذا قلب قد تاب ولم ينزع ، فلم يصقل قلبه بعد ؛ وذلك أن المرأة المصقولة إذا نظرت فيها أرتك عن اليمين وعن الشمال ، وخلقت وأمامك ؛ فإذا قلبت بها إلى عين الشمس هكذا ، فلاق نور المرأة نور الشمس ، وجدت الشمس تشرق في مكانك وفي بيتك ؛ فكذلك إذا صقلت مرآتك ، وهى قلبك ، نظرت عنها إلى الجنة والنار ، وإلى بهاء الحسنات ، وإلى جمالها ورفعة مرتبتها ، وإلى قبح السيئات ، وإلى الدنيا والآخرة ، وإذا نظرت فيها إلى تديير خالقك ، تراءى لك عجائب ، وذلك النور الذى تجده عندك ، إذا أقبلت بمرآتك إلى عين الشمس ، ليس هو الشمس ، إنما هو نور حدث من بينهما ، فإذا صفا قلبك من الهوى ، حينئذ تجد اليقين ، لأن اليقين هو نور يحدث على قلبك من

الله عليه وسلم لسعد بن معاذ رضى الله عنه : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرفعة . والرفيع : السماء ، والأرفعة : جماعة . فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أصاب فيهم ^(١) حكم الله عنده ، وكان حكم بأن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ، وتكون الغنيمة للمهاجرين دون الأنصار ، وذلك في شأن بنى قريظة .

حدثنا عبد الكريم بن عبد الله ، عن علي بن الحسن ، عن عبد الله ، قال : أخبرني أبو بكر بن أبي مريم ، حدثني راشد بن أبي راشد ، قال كنت مع خالد بن أبي معدان يوما في بعض أسواق المدينة بجمص ، فإذا نحن بنصراني أظهر الشرك بالله تعالى ، فقال لى خالد : احسر عن ذراعيك ، ثم قال لى : دق أنفه ، قال راشد : فوجأت أنفه أن دقته ، فانطلق النصراني فاستعدى علينا ، فقال الوالى لخالد : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : أرغم الله أنفه وأنف من ثقل عليه تأديتنا له ، إنه ليس لهم أن يظهروا شركا ولا صليبا ، فيصنع هذا بهم حتى يكفوا عن إظهار الشرك بالله عز وجل .

حدثنا عبد الله بن أبي زياد ، قال : حدثنا سيار عن حفص بن سليمان ، عن مالك بن دينار رحمه الله ، قال : رأى عامر بن عبد قيس ذميا يظلم ، فأتى رداءه فقال : والله آتخفر ^(٢) ذمة وأنا حى ؟ فاستنقذه .

فإذا فطمت نفسك عن حرارة الهوى ، ووقعت حرارة الفطام على

(١) فى الأصل : فيكم .

(٢) كذا فى الأصل . ولعله : لا تخفر .

الأرض عيونا ، وإن عليا من عيون الله . حدثنا عبد الجبار بن العلاء ، قال : حدثنا سفيان ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، سمعه من قيس بن أبي حازم ، قال : عرض أبو بكر الصديق رضي الله عنه فرس له ، فقال غلام من الأنصار : احملني عليها يا خليفة رسول الله ، قال : لأن أحمل عليها غلاما قد ركب الخيل بعدلته ، أحب إلى من أن ^(١) أحملك عليها . فقال : لم ؟ فوالله أنا خير منك فارسا ، ومن أيبك . قال المغيرة : فما ملكت نفسي أن أخذت برأسه فركبته ، فأقبلا منخرا كأنهما عزلاء ^(٢) مزادة . قال : فبلغ أبا بكر رضي الله عنه ، أن ناسا من الأنصار يتوعدون المغيرة ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : بلغني أن ناسا من الأنصار يتوعدون المغيرة ، والله لا يخرجوا ^(٣) من ديارهم أسرع من أن أقيدهم بروعة الله . حدثنا الجارود ، عن يزيد بن هرون ، عن حماد بن سلمة ، عن هشام ، عن عروة ، عن أبيه ، قال : أرسل أبو بكر الصديق خالد بن الوليد رضي الله عنهما إلى بني سليم ، فجعلهم في الحضائر ^(٤) ، ففرقهم بالنار . قال عمر رضي الله عنه لأبي بكر رضي الله عنه : تستعمل رجلا يعذب بهذاب الله ؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه : دعنا عنك يا عمر ، والله لأشيم سيفا سله الله على المشركين ، حتى يكون هو الذي يشيمه . وقول رسول الله صلى

(١) زيادة ليست في الأصل .

(٢) عزلاء المزادة : فيها ، والجمع : الغزالي . وفي الأصل : عزلا . تحريف .

(٣) في الأصل « يخرجوا » .

(٤) كنا في الأصل . ولعله : الحظائر ، جمع حظيرة ، وهي ما يدار حول الإبل

وغيرها من خشب أو قصب ، لحفظها من البرد والريح .

الرسول بدرجة ، والمحدث دون النبي بدرجة ، وللرسول درجة الرسالة ،
وللنبي درجة النبوة ، وللمحدث درجة الحديث . وقد أحكم الله بهذا
الإسلام الذي ارتضاه لنا ديناً على لسان الكتاب والسنة ، ما ليس لأحد
فيه استبداد ، ولا تجاوز ولا تقصير ، إنما هو حفظ الحدود ، واتباع الأمر
الجليلة ^(١) ؛ ثم الصديقون والملمهون والمحدثون أمور خارجة من الحدود
والأحكام ، وهو تدير الله عز وجل وكلاءه ، على ما ذكرناه بدءاً .

ولم نجئ بشأن ذكر الخضر ههنا لنطلق لمن بعده مثله ، إنما أردنا
أن نحقق أن الله عباداً يضع عندهم من مكنون العلم ما شاء ، وأن لهم عنده من
المنازل ما يتحقق عند من يفهم هذا ، أن ذلك الذي قلنا كيف يكون ، حتى
به يسمع ، وبه يبصر ، وبه ينطق ، وبه يبطلش ، وبه يمشي ، وبه يعقل .
فأما ما ذكر في الأخبار ، حدثنا عمر بن أبي عمر ، قال : حدثنا
الربيع بن روح الحمصي ، قال : حدثنا ابن عياش ، عن ضمضم بن زرعة
الحضرمي ، عن شريح بن عبيد الحضرمي ، عن عبد الله بن زيد ، قال :
قال لقمان عليه السلام : ألا إن يد الله تعالى على أفواه الحكماء ، فلا
ينطق أحد إلا بما هيأه الله له . وحدثنا أبو بكر بن سابق الأموي ، قال :
حدثنا عمر بن عبيد الطنافسي ، عن الأعمش ، قال : جاء رجل إلى عمر
رضي الله عنه ، قال : إن علياً شجنى . فقال لعلي : لم شجنيت هذا ؟
قال : إني مررت به وهو مقاوم ^(٢) امرأة ، فسأني مقامها ، فضغيت لها ،
فسمعت ما كرهت ، فشجنيت . فقال عمر رضي الله عنه : إن لله في

(١) كذا في الأصل . ولعله : في الجملة ، أو على الجملة . (٢) قائم معها .

وألمه وفهمه ، وصيره من أولى الألباب ، فإن نطق نطق بحكمة ، وإن أنصت أنصت بفكرة ، وإن نظر نظر بعبرة ، وإن مشى مشى بهيئة ، وإن بطش بطش بغلبة ، قد منع قلبه من التفكير ، وسلب في الأمور التدبير . وهذا كله موجود تحققه في الكتاب والخبر .

فأما في الكتاب فشان الخضر عليه السلام ، حرق السفينة ، وقتل الغلام ، وأقام الجدار ، فلو عمل في الظاهر ما قدر على ذلك ؛ ثم قال في آخر أمره : « وما فعلته عن أمري ^(١) » . فهذا من الله في الباطن ، الذي يؤتية من يشاء ، وقد قال في ذكره له : « فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علما ^(٢) » . فقد بين أن هذا له من طريق العلم الذي علمه ربه . وما ذكر من شأن ذي القرنين ، فقال : « إنا مكنا له في الأرض ، وآتيناه من كل شيء سببا ، فاتبع سببا ^(٣) » . فأوتي العلم الذي لم يؤت غيره .

فإن قال قائل : فهل يجوز لأحد أن يفعل على ما يترائي له في قلبه ، أو يقتدى بالخضر عليه السلام فيما يبدو ؟ قيل : لا ، قد ختم الله تعالى بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم الرسالة ، ولم يبق في الأرض بعده إلا الملمهون والمحدثون . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : قد كان في بني إسرائيل محدثون ، فإن يك في أمتي أحد منهم فمهر بن الخطاب رضي الله عنه . وكان ابن عباس رضي الله عنه يقرأ هذه الآية « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث » . والنبي دون

(٢) سورة ١٨ ، آية ٦٥ .

(١) سورة ١٨ ، آية ٨٢ .

(٣) سورة ١٨ ، آية ٨٥ .

ويعظم أموره ، ويذب عن دينه مالا يحمل ، ويدعو عباده ، فهو وليه ، ورب العزة وليه وهذا شأنه حتى يلقاه .

وبيان صفة هذا العبد موجود في الآثار . حدثنا إسماعيل بن نصر ، قال : حدثنا أبو المنذر القطعي ، قال : حدثنا عبد الواحد بن حمزة ، عن مولى عروة بن الزبير ، عن عائشة رضي الله عنها ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن الله تبارك وتعالى . وحدثنا إبراهيم بن المستمير البصري ، قال : حدثنا أبو عامر العقدي ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن ميمون مولى عروة ، عن عروة ، عن عائشة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) قال : حدثني جبريل عن الله عز وجل - دخل حديث بعضهم في بعض - أنه قال : « مات قرب إلى عبيدي بمثل أداء فرائضي ، وإن عبيدي ليتقرب بالنوافل حتى أحبه ، وما تقرب إلى عبيدي بشيء من النوافل مثل النصح لي حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي به يسمع ، وبصره الذي به يبصر ، ويده التي بها يبسط ، ورجله التي بها يمشي ، ولسانه الذي به ينطق ، وفؤاده الذي به يعقل » . فما ظننا بعبد يعقل بالله ، وينطق بالله ، ويسمع بالله ، ويبصر بالله ، ويبسط بالله ، ويمشي بالله ، كيف يكون سعيه وآثاره منقلبة في الدنيا .

قال له قائل : كيف يكون هذا ؟ قال : هذا عبد قد يسره ، وولى سياسته ، وحفظه ورعايته ، واستعمله ، فكان في صنعه ، قد أمات فيه الشهوات ، ويسر عليه الصعاب ، وبسط له النور ، ومد له في الأسباب ،

(١) زاد في الأصل هنا : « عن جبريل » .

للحمولة ، فتراها الشهر والدهر موكفة تحت الحمولة ، فرة مهزولة ، ومرة
دبرة جائعة ، في عنف وسير وكد عمل ، وهي دابة من الدواب ؛
فكذلك يصير العبد إذا راض نفسه بترك الشهوات ، وقطع الأسباب ،
وانقطع عن اللذات ، ومجاهدة الهوى ، وامتناعه عما يريد ، حتى تذل
وثنيق ، حينئذ ينقاد القلب والعقل ، وتستقيم في سيرها على حد ما أمر به ،
ولا تهاب أحدا في أموره ، ولا تخاف فيه لومة لائم ، وإذا نابته التوائب
خاطر بنفسه في ذات الله ، وأذنه مصغية إلى مولاه ، وقلبه شاخص إلى
مشيئاته وإرادته ، وإلى ما يبرز له من حجب الغيب ، فيقبله بالطوع
والهشاشة ، والانطلاق إلى ما يستعمله به ، وكيف ينقله من حال إلى حال ،
فإن رأى نصرته عدّ ذلك منه فضلا ورحمة ، وإن رأى خذلانه فزع
إليه ، وألقى نفسه بين يديه ، صارخا إليه ، مستغيثا به ، فهو ولى من
أوليائه ، رفع باله عن نفسه ، فرمى بها إلى ربها ، فقال : أنت ربى ، وأنت
خلقتنى لما تشاء ، لا لما أشاء ، ولا علم لى بشأنى ، وبما فعلت بى ،
ووجدتك أرف وأرحم بى منى بنفسى ، فرفعت بالى عن نفسى ، وألقيت
بيدى إليك مسلما ، فأقبلنى ، فإنك قد بينت فى تنزيلك : « ومن يسلم
وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ^(١) » ، قد ألقىت
انخلق وراء ظهري ، فنظري إليك ، وقطعت الأسباب ، فتعلق بك ، والله
تبارك وتعالى قائم عليه ، يرعاه ويكأوه ، ويؤيده وينصره ، ويقر عينه ،
والعبد مشغول بربه ، ينظر إلى ملكه ، وينصر حقوقه ، ويحفظ حدوده ،

كانت قبل ذلك هملاً^(١) في الرعى ، تفعل ماهويت ، فهي قريبة القيمة من أشكالها من الدواب ، وإنما اختصها الملك وأطاب علفها ، وصانها عن رؤية الناس ، وجللها وعزلها عن الجهد والكد ، بترك مراعيها وهواها ونشاطها ، وأنسها بأشكالها ، واحتملها التعب في جنب مالِكها ، وإعطاء المجهود بالصدق من نفسها ، ويقظة^(٢) قلبها ، ونظرها بقلبها إلى راكبيها ، ولو كانت إذا راضها لم تنقد لمولاها ، ولم تأخذ سيرها ، ولم تؤدب بأدبه ، فإن سيرها أبطأت في السير ، وإن مال بعنانها امتنعت وشمست ، وإن مدّها جمحت فمدّت به ، وفي الموضع الذي كان يريد السير منها امتنعت من إعطاء ما فيها من القوة ، وفي الموضع الذي أراد منها الوقوف حرت ، فركبت هواها ، فجاءت بالقوة التي امتنعت منها هناك في السير ، فإن قهرها باللجام ، فأمسكت عن الركض ، لم تمسك من أجل مولاها ، ولكنها أمسكت من كبج اللجام ، والألم الذي خلص إلى كبوحيتها ، فأشفقت على فيها وأسنانها ولسانها وحنكها ، فتركت حينئذ هواها ، فجعلت تدور ولا تستقر ، لأنها لم تسخ نفسها الدنيئة بطاعة راكبيها ، ومع ذلك تبول وتروث في مكانها ، وتترك مكانها ، فإن استقبلها جلبة نفرت ، وتركت سيرها ، فرجعت قهقري ، وربما كانت من خلفها بئر أو جرف تتردى فيها ، وتنكسر وتقتل نفسها ، فهذه دابة خسيصة ، فيها أخلاق السوء ، لاتصلح للملك ، وإنما تصلح

(١) أى مهملة متروكة سدى . وفي الأصل مهملا . تحريف .

(٢) في الأصل : وبفقه .

رجع ، وأثر هواه على هوى موافقة نفسه ، فأجابه منقضا إلى حبله وسباقه ^(١) ؛ أفلا يحق على مؤمن أبصر هذا أن يموت كدما وعبرة وأسفا على فوت هذا من نفسه ، أن يكون طيره أسمع له وأطوع ، وأشد تحريا لموافقته ، وألزم لنصيحتته من العبد المؤمن لربه ، ألا ترى إلى الدابة الخسيسة قيمتها قليلة ، تؤخذ من الدواب وقد اعتادت الرعى حيثما شاءت ، كيف يروضها الرائيض على قبول السرج واللجام ؟ وكيف يؤدبها حتى تأخذ السير ؟ وكيف يؤدبها عند القناطر ، وفي مواضع الجلبة ، يريد أن يشيعها حتى لا تهاب هذه المواضع إذا بلغت ؟ وكيف تفتح أذنيها عند المسير ، وتميل يمينا وشمالا ، لا ينقلب عنانها ، فإن لم تجد قنطرة فأهوى بعنانها ، وثبت إلى الجانب وثبة مخاطرة بنفسها ، وإن استقبلها جلبة لم تهب ، ولم تترك سيرها ، فتصير بحال تصلح للملك ، فإن قومت قومت بالدنانير رفعة لها ، لا بالدراهم ، فتجمل وتبرقع ، ويصنف لها العلف ، وتربط في مربوط الملك ؛ فإنما بلغت هذا المبلغ ، وسقط عنها جهد العمل وكده ، وحمل أثقال المحولات ، وتخلصت من دبر الظهر ، ومشقة الاستعمال ، فإنما تركت هواها ، ورفعت بالها عن نفسها ، فإن خاطرت لم تبال ، وإن أتعبت نفسها لم تمل ، وإن اقتضاها راكبها السير ^(٢) والركض والوثب ، استفرغت مجهودها في إعطاء كل ما يبتغى منها ، من غير جمع ولا حزن ولا تسكّر ولا شمس ولا كسل ، ولا تركت أدبها ، وقد

(١) السباقان : قيدان في رجل الجارح من الطير من سير أو غيره .

(٢) في الأصل : للسير . واقتضى يتعدى إلى مفعولين ، تقول : اقتضاه دينه ،

كما في أساس البلاغة للزمخشري .

أمر السموات إلى العرش لك معاينة ، تبصره بعيني قلبك ، كأنك تنظر إليه ، كما قال حارثة رضى الله عنه : يارسول الله ، كأننى أنظر إلى عرش ربى بارزا ، وإلى أهل الجنة كيف يتزاورون ، وإلى أهل النار كيف يتعاونون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عرفت فالزم . عبد نوّر الله الإيمان فى قلبه . فإذا صنت قلبك فصنه بعد ما ذكرنا عن النظر إلى نفسك إعجابا وفرحا ، بالغطاء لها انقطعت الأسباب منك ، وصفا لك طريقك إلى الله عز وجل بلا غبار ولا غيم ، فلا يغان على قلبك ، فإذا أصاب قلبك الغين استغفرت ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه ليغان على قلبى ، فاستغفر الله فى اليوم مائة مرة . وهذا الغين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس كما يحده من بعده فىنا نعلمه ، فليس نراه من طريق التخليط ، ولا من طريق العيب ، فقد كان قلبه أظهر ، وشأن أمره أعظم ، وأجل من أن يظن به .

ولهذا الباب تفسير أوضح من هذا ، نبينه فى آخر هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ، فى صفة القلب وخلقته وشرح اليقين ماهو .

أردنا أن نستتم ذكر النفس ورياضتها عندنا ^(١) إلى ذكر رياضة النفس . ألا ترى أن البازى كيف كان نفاذه من الآدميين فى الجبال الشامخات ، فلما ربّ وأمسك على التربية ، أنس بصاحبه ، وأخذت التربية بقلبه ، واعتاد الكون معه ، فنزع عن النفاذ ، وترك هم الطيران ، واطمأن إلى صاحبه ، حتى إذا أرسله وحته على الطيران طار ، فأصاد وأمسك عليه صيده ، تحريا لمواقفة مولاه ، ثم إن دعاه من الطيران

(١) فى الأصل : عندنا ، تحريف .

ويقال في اللغة : راض ورض بمعنى واحد ؛ فمن قال رض ، فلما أذغم الألف في الضاد ، فشدّ (١) ، ومن أبرز الألف خفف الضاد ، فقال راض ، فالرض الكسر ، فقليل في الأشياء المكسورة رض ، وقيل في الأخلاق المكسورة راض . فهذه النفس إذا فطمها انكسرت عن الإلحاح عليك ، ومنازعتك في الأمور ، فإن النفس اعتادت اللذة والشهوة ، وأن تعمل بالهوى ، فإذا فطمها عن العادة انفطمت ؛ ألا ترى أن الصبي إنما اعتاد ثدي أمه ، كيف سكونه بذلك الثدي ، إنما يحن إليه إذا فقده ، وكيف يفرح به إذا وجده ؛ فكذلك النفس الشهوانية ، فإذا فطم الصبي انفطم ، حتى لا يلتفت إلى الثدي بعد ذلك ، لأنه وجد طعم ألوان الأطعمة ، فلا يحن إلى اللبن ، كذلك النفس إذا وجدت طيب اليقين ، وروح قرب الله تعالى ، وحلاوة اختيار الله عز وجل له ، وجميل نظره لها ، لم تحن إلى تلك الشهوات .

قيل له : فماذا يوجد اليقين ؟ قال : بطهارة القلب ، لأن اليقين طاهر ، فيطهر مكانه ومستقره .

قيل له : وما طهارته ؟ قال : ترك ما اضطرب القلب عليه ورابط منه تورعا ، دق أو جل ، ثم تطهره من التعلق بالشهوات ، والاشتغال بها ، فإذا أنت فعلت ذلك صقلت قلبك ، فصار لك مرآة بالتورع ؛ فكلما تفكرت شيئا من أمر الآخرة ، تمثل ذلك في مرآتك ، حتى يصير الآخرة لك معاينة ، فإذا منعت قلبك عن حريق الشهوات ، كما تصون مرآتك عن حرارة أنفاسك ، تمثل في قلبك الملكوت ، حتى يصير

(١) كذا في الأصل . ولا ضرورة للغاء .

حدثنا بذلك الجارود بن معاذ رحمه الله ، عن علي وعمير بن عبد الله ،
فكانوا في المصائب يرحمون ، فيكون ما يرون ، وكانوا أعلم الناس
بالموت ، وكنه مرارته ، وعظم شأنه ، وخطر المقدم على الله عز وجل ،
فكانت قلوبهم ترق لما يرون ، ألا ترى أنه قال في حديث إبراهيم
ابنه : « إنما هذه رحمة ، ومن لا يرحم لا يرحم » . فكان يبكي ، ويعدّ
ذلك رحمة ، ويحتسب بذلك البكاء على الله عز وجل ؛ ألا ترى أنه عاب
من لا يرحم ، فكانت تلك منه رقة ، ومن هؤلاء القوم فتنة وصباية .
وكذلك وجدنا الخبر عن حزن يعقوب عليه السلام ، أنه قال ليوסף
عليه السلام : يا بني ، إنما حزنت عليك مخافة . وأيضا من طريق آخر
قد يجوز أن يكون الله سبحانه إذ جعلهم أئمة الخلق ، هيّج منهم
أشياء ، ليكون لمن بعدهم بذلك اعتبار .

وفي هذا كلام إلى غاية الطول ، قد بيناه في كتاب « صفة القلوب
وأحوالها ، وهيئة تركيبها » وما يتردد في النفس في صدور القلوب .

رجعنا إلى ذكر « رياضة النفس » :

قال له القائل : وما رياضة النفس ؟ وكيف يكون ذلك ؟ قال :
يسير على من يسره الله ووفقه . فأما الرياضة فهي مشتقة عربيتها من
الرّض ، وهو الكسر ؛ وذلك أن النفس اعتادت اللذة والشهوة ، وأن
تعمل بهواها ، فهي متحيرة ، قائمة على قلبك بالإمرة ، وهي الإمرة
بالشهوة ، فيحتاج إلى أن يقطعها ، فإذا قطعها عن العادة انقطعت .

فهل ميزت بين هذه الأشياء ، وهل اطلعت مطلع هذه المنازل ؟ أم أنت رجل تبعت شيئا من هذا العلم تفخر به ، وترأست به ، فأنت تريد أن تطلق نور الله بفيك ، وتنسب الرسل إلى ما لم يأذن به الله ، وتحير الخلق في سبيل الله ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون والكافرون .
فأما فرح المتقين فبفضل الله ورحمته ، وعلى ذلك دلّ عباده ؛
وأما فرح الأنبياء والصديقين فيه تبارك اسمه ؛ ولذلك روى لنا عن مالك بن دينار رحمه الله ، قال : قرأت في بعض الكتب : يامعشر الصديقين ، تنعموا بذكرى ، فإن ذكرى لكم في الدنيا نعيم ، وفي الآخرة جزاء . وقال في حديث آخر : « آثرتموني على شهواتكم ، ورضيتم بي بدلا من خلقي ، فبي فافرحوا ، وبذكرى فتنعموا ، فوعزتي ما خلقت الجنان إلا من أجلكم . وحدثنا عبد الرحيم عن حبيب الفاريازي ، في حديث له ذكره عن حبيب العجمي رحمه الله ، أنه كان يقول [ما] ^(١) تفسيره : يارب فرحت حتى كدت أموت من الفرح ، مثلك لي رب وأنا عبدك : « خدایا عجب است ممکن از شادی بمیرم که مراجو تو خدائی » ^(٢) ، وأما بكاؤهم فكانت الأنبياء عليهم السلام أرحم البرية ، فكلموا ازداد العبد من الله تعالى قربة ، كانت له من الرحمة أكثر . وكذلك روى لنا عن ابن المبارك ، عن عبيد بن عمير ، قال : ما ازداد العبد من الله تعالى قربة ، إلا كان له من الرحمة ما ليس لغيره .

(١) زيادة ليست في الأصل .

(٢) جاءت هذه الجملة في الأصل هكذا : « خدایا عجب است کمن از شادی بمیرم کمرآ جو تخدآ » . وقد حققناها كما يرى .

فالأول هو غنى بالمال ، والثاني غنى بربه ومليكه ، فالأول فرح بالمال والأحوال ، والثاني فرح بالله ، ثم بفضل ورحمته ، عامة ملجئه ومفرغه إلى الله عز وجل ، فالأول قلبه مأسور بالأشياء ، قد ملكته حلاوة الأشياء ، والثاني سكن قلبه حلاوة قرب الله عز وجل ، فالأول قلبه بالأشياء ، وبالأشياء تعلقه ؛ والثاني مشغول بالله وإليه منيب ، وبه متعلق . ومما يحقق عندنا حال هذا الثاني ، ما أتت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن السلف الصالح من بعده ، حدثونا به عن ابن المبارك ، عن صالح المري ، عن حبيب أبي محمد ، وهو العجمي رحمه الله ، عن شهر بن حوشب ، عن أبي ذر رضى الله عنه ولم يرفعه ؛ وأما غير ابن المبارك فرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : يقول الله تبارك وتعالى لجبريل عليه السلام : يا جبريل ، انسخ من قلب العبد الحلاوة التي كان يجدها بي ، فينسخها من قلبه ، فيصير العبد والمها .

فإن اعترض في هذا القول معترض بالإنكار ، وقال هذا غير موجود في الأنبياء والرسل عليهم السلام ، فقد جاءنا عنهم أنهم كانوا ييكونون في المصائب ، ويحزنون عليها ، ويجدون ألم الأشياء المكروهة ، ويفرحون في المحبوب . فيقال له : يا عاجز ، وما يدريك من أى شيء بكت الرسل وحزنت ؟ وكيف كان همهم في المكاره ؟ وكيف كان فرحهم ؟ ومن أى شيء فرحوا ؟ قرب فرح محمود ، وعلى ذلك حب الله عباده ؛ ورب حزن ممدوح أهله في الدنيا والآخرة ، ونطق الكتاب بالثناء عليهم ، والبكاء على سبعة أنواع ، فما فوقها ، كل نوع منها من شيء غير الآخر ،

رضي الله عنهما : « فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا واليقين ، فافعل ؛ فإن لم تستطع فاصبر ، فإن الصبر على ما تكره خير كثير . واعلم أن مع العسر يسرا ، ومع الكرب فرجا » . حدثنا بذلك علي بن حجر ، قال حدثنا بذلك إسماعيل بن عياش وعيسى بن يونس ، قالا : حدثنا عمر مولى غفرة ، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، عن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ؛ فقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم المنزلتين في هذا الحديث .

واعلم أن الصابر عاجز عن مقام الراضي ، وأن الراضي باليقين أدرك ذلك ، لأنه عين عواقب الأمور ، وذلك بمنزلة رجل كان له كيس من دراهم ، افتقده من حيث وضعه ، وهو لا يملك شيئا سواه ، فثار في رأسه كالثيران ، من شدة الوجد لفقده ، حتى تبين ذلك في أحواله وفي وجهه ، وظهر اغتمامه بذلك ، فقال له رجل مليء وفي بر صدوق : أنا أعطيك رأس السنة بدل كل درهم ديناراً ^(١) ؛ فسكن إلى قوله ، وسكن بعض ما به من الوجد ، فلا يخلو من الاغتمام ، ويضيق صدره بمضي هذه المدة ، فهو يصبر على كره ، إلا أنه مازج ما أطمع فيه ، الوجد الذي في نفسه ، خف ما به وهو كاره صابر ؛ ورجل آخر افتقد كيسا من دراهم ، وفي ملكه ملء بيوت من جواهر ، كل جوهر لا يدرى ما قيمته فما يتبين عليه فقد ذلك الكيس ، ولا يبالي به ، وهو في ذلك كالذي افتقد فلسا وعنده كيس من دراهم ،

(١) في الأصل « دينار » .

وأنجز له الوعد ؛ فقد بين هذا الشأن في آيتين من كتابه ، فقال :
 « وجاهدوا في الله حق جهاده ^(١) » فأمر بمجاهدة النفس ، وفطمها عن
 أخلاق السوء ، عن أن يريد غير ما يريد الرب جل وعلا ، فلو تركنا في
 جميع أعمارنا لكان ، هذا أمرا هائلا عظيما ، لكنه وعد في آية أخرى أن
 يخلصنا من وباله ، ويؤدبنا ويبصرنا ، فقال : « والذين جاهدوا فينا
 لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين ^(٢) » . فهو هاديك ، وهو معك
 في النصر والتأييد ، فرحته منك قريب ، ممن يقويك ^(٣) ومن يدركك .
 وإنما الشأن أن تجاهد في بدء أمرك حق جهاده ، فإذا أنت قد
 ظفرت بالوعد الثاني قد أنجزه لك ، فإذا هدأك السبيل ملاً قلبك نورا
 وكلاءة ورعاية حتى لا ترغ ، فهو المنيب ، المقبل على ربه ، القابل لأمره
 بالهشاشة والسرعة . ألا ترى إلى قول الرسل الذين مضوا عليهم السلام ،
 حكى عنهم الرب تبارك وتعالى ، حيث قالوا : « وما لنا ألا نتوكل على
 الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا ^(٤) » . والتوكل هو أن
 تفوض أمرك إلى ربك ، ثم ترضي بما يصنع بك ، فاعلموا في قلوبهم
 أنهم إنما قوا على ذلك بما هداهم الله لسبيله . ومما يحقق ما قلنا في شأن
 الراضى والصابر ، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس

(١) سورة ٢٢ ، آية ٧٧ .

(٢) سورة ٢٩ ، آية ٦٩ .

(٣) في الأصل : يقوى بك .

(٤) سورة ١٤ ، آية ١٢ .

أبصار قلوبهم ، فأبصرت في لحظة أن هذا الأمر قد كان في اللوح المحفوظ كما برز لنا الآن ، وهو حكم الله علينا ، لم يكن فيهم من الشهوات ولا من الهوى من القوة ما يشغل عليهم قبوله من ربهم ، وتلقوا أمره بالهشاشة وطلاقة النفس وبشر الوجوه ، فهم الراضون والصابرون ، قبلوا على كره من نفوسهم وجهد ، لأن شهواتهم حية قوية في نفوسهم ، و يقينهم ضعيف ، لم يبصروا اختيار الله لهم ذلك ، ورأفته ورحمته عليهم ، ولم يكن لاختيار الله تعالى ولا لمشيئته عندهم موقع حلاوة ، فكانت تلك الحلاوة تمازج مرارات النفوس ، فتذهب بالمرارة ، كما تجد المرارات في الأدوية ، فتمزج بالمسل والسكر وما أشبه ذلك ، فيغلب عليه ، فتفقد تلك المرارات منه ؛ وإنما تقع حلاوة صنع الصانع في قلبك على قدر حبك للصانع ، وإنما تحب الصانع على قدر معرفتك بقدره ، وكلما كنت به أعلم ، وكان هو أرفع منزلة في الأشياء ، كان قدره عندك أعظم ، وهو إليك أحب ، ولذلك قيل : أشدهم حبا له أعلمهم به ، وأعرفهم له ، ومنه قول بديل العقيلي : « من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها » . رواه ابن المبارك ، عن سفيان الثوري رحمه الله تعالى ، قال : كتب الحجاج بن فرافصة عن بديل رحمه الله .

فمن عجز عن الرياضة ، وإنما يقبل أحكام الله تعالى ومشيئاته على حد الإيمان ، وصبر على أموره على حد التقوى بأركانه ، على ثقل من نفسه ، وتغيب وتكدير من عيشه ، وجهد من قلبه ؛ ومن راضها وأدبها استقامت في السير ، وانقطعت عن أخلاقها ، وتداركه ربه بالنصر والمدد ،

فأهل الفهم راضوا أنفسهم وتدبروا ، فقالوا : كيف كيف لنا بأن
لأناسى على مايفوتنا من الدنيا ، وتمنوا إليه حاجة ، وطلبوا من أين يدخل
الضرر عليهم ، فوجدوا أنهم لما عارضتهم الحوائج فى أنفسهم ، تحدثوا
بها وتمنوها ، وطلبوها على التملك والافتقار ، وأطمعوا أنفسهم فى إصابتها ،
فلما فاتتهم ، وجدوا الأسى والحزن على فوت ذلك ؛ ففهموا أن هذا إنما
دخل عليهم من أجل أنهم تمنوها ، وأطمعوا أنفسهم فى إصابتها ، فوجدت
النفس حلاوة وجودها ، وقوى الهوى ، فراضوا أنفسهم بترك الشهوات ،
وقطع المنى ، فخذت نيران شهواتهم ، ففارقوا الهوى جهدهم ، لمجاهدتهم
إياه ، حتى ذلل وانقمع ، وكما بدا لهم أمر ، أو خطر ببالهم ، لم يتمنوا
ولا أطمعوا أنفسهم ، وانتظروا ما يبرز لهم من المسطور فى اللوح السابق
قبل خلق السموات ، فسلموا ربهم ، وانقادوا لحكمته كالعبيد ، فعاشوا
فى الدنيا بأرفع درجة ، وأكرم منزلة عند أنفسهم ، وأنعم بال وأقر عين
بهذا الدين ، وماتوا بروح وريحان ، ولقوا ربا غير غضبان ، رضوا عن
مولاهم ، فرضى عنهم ، فأيدهم فى الدنيا بروح منه ، وفى الآخرة قر بهم
ولطف بهم ، « أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » ،
أولئك « أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . استنارت قلوبهم
باليقين ، فصارت أمورهم فى نوائبه ^(١) كالماينة ، كلما حل بهم أمر من
عسر أو يسر ، أو خوف أو أمن ، أو ذل أو عز ، أو بلاء أو نعمة ، حرق

(١) فى الأصل : « نوايبهم » .

أما تستحين أن تلقى ربك بهذه الحالة ، ولكنى قد فهمت لم اضطربت بعد أن أيقنت بضمان ربك ، إنك ذات شهوات ، فيك شهوة العز ، فأنت تهرين من الذل ، وفيك شهوة ألوان الطعام ، فأنت تهرين من البؤس ، فيك شهوة إدراك المنى ، فأنت تهرين من فقتها . وإنما تضطرين لأنك أردت أن يكون رزقك في وقت ، وأراد ربك في وقت آخر ، واشتهيت أن يكون على صفة ، وأراد ربك غير ذلك ، وأردت من وجه راحة ، وأراد ربك من وجه تتعبد فيه ، وأردت كثيرا ، وأراد ربك أقل من ذلك ، فأصبحت وأمسيت مخالفة لربك في مشيئاته وإرادته ، فحملك ذلك على الشهوة ، حتى غلبتك ، فرمتك في أودية المهالك ، فأقبلت بهلك وجزعك على حطام الدنيا ، من سبيل الخبائث والأفذار والشبهات والأوساخ ، لسكون نفسك به ، ثم منعت حقوق الله فيه من ظاهر الأحكام ، فقطعت الأرحام ، وباغضت العباد ، واستخففت بحقوق المسلمين والمؤمنين ، وهربت من إنصافهم ، وجفوت أهل الحرمة ، فأصبحت وأمسيت ظلوما غشوما ، ووعد الله ينادى في سمعك قوله تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين ^(١) » . فهل تعرف مقدار الخردة من الظلم ماهو ، وكيف يكون ؟ لو نجع فيك هذا الوعيد لطارت منك الشهوات ، ومات منك الهوى .

(١) سورة ٢١ ، آية ٤٧

ذات شهوات ، لا أبصر أمكنة الأشياء ، ولا أعرف أوقاتها ، ولا أعلم مقاديرها ، واشتبهت على كيفية أسباب وصولها إلى . فقال لها : أيتها النفس ، إن كنت قد آمنت بربك ، فحقيق عليك أن يكون كلام رب العالمين ووعده وضمانه وتكفله ، أثبت عندك وأؤكد وأقوى من الذى تبصرينه على المشاهدة ، لأن البصر ربما أخطأ ، وربما كان مسحورا ، يرى أنه كذلك وليس كذلك ، وقول رب العالمين أصدق وأبر ، وأوفى وأثبت من بصرك بعينك ، فلو أبصرت الشئ الذى يحويه ملكك اطمانت وسكنت ، فكيف لا يكون بضمانه أشد طمأنينة ، أرايت لو كان لك ديوان فيه غرماء ملاء أسماؤهم ، مكتوب فيه : على فلان ألف درهم ، وعلى فلان ألف دينار ، وعلى فلان عشرة آلاف درهم ، أكنت تطمئن ؟ فإن وجدتتها قد طابت وسكن اضطرابها لما وجدت فى الديوان من أسماء هؤلاء ، وهم أهل صدق ووفاء ، فأنشر عليها ديوان رب العالمين ، وهو القرآن المجيد المنسوخ فى اللوح المحفوظ ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، نزل به الروح الأمين ، على قلب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رسول رب العالمين ، فقلب أوراقه ، حتى تقف بها على آية الرزق ، حيث يقول تعالى : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ^(١) » . ثم قل لها : أيتها النفس المطمئنة ، وجدت فى ديوانك على هؤلاء الغارمين ما وجدت ، وفرحت وأمنت الفقر فطبت ، فهذا فى المصحف قوله : « على الله رزقها » . أهذا أعظم شأنا ، وأصدق وأبر وأوفى ، أم الذى وجدت فى ديوانك ؟

ذلك في تنزيله ، فقال تعالى : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ^(١) » ، أى من قبل أن تخلق تلك المصيبة ، ثم بين لم فعل ذلك ، فقال : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم ^(٢) » . فإن التأسى على الشيء الذى لم يقدر لك في اللوح هو استبداد وطلب ما ليس لك ، والفرح بما آتاك يلهيك ويشغلك عن المعطى ، حتى تأثر وتبطر بما تعطى ، قهلك ، وإنما المبتغى منك في ذلك أن تلهو عن الغائب ، وتفرح في الموجود الذى آتاك بالأهل الذى آتاك ، تم بفضل ورحمته عليك ، وإلى هذا نذكرك فقال : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون ^(٣) » . وقال تعالى في شأن الرزق : « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل في كتاب مبين ^(٤) » . ثم قال تعالى : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ^(٥) » . أى من يأكل تلك الحبة ومن يرزقها . فإن اضطربت نفسه على ضمانه لقلة اليقين وغلبة الهوى وحرارة الشهوات ، خاطب نفسه فقال : يا أيتهما النفس لم تضطربين ؟ قالت : لأنى محتاجة ، وخلقت مضطرة ،

(١) سورة ٥٧ ، آية ٢٢

(٢) سورة ٥٧ ، آية ٢٣

(٣) سورة ١٠ ، آية ٥٨

(٤) سورة ١١ ، آية ٦

(٥) سورة ٦ ، آية ٥٩

استنار الإيمان في قلوبهم ، سكنت القلوب ، واطمأنت النفوس إلى ضمان ربها ، وقر به منهم ، وقدرته عليهم . فهذا شأن الرزق والمعاش ، وفوضوا أمورهم فيما سوى المعاش إليه ، واتخذوه وكيلا ، لأنهم لما عرفوا بأنه رءوف رحيم منهم بأنفسهم ، وأحق وأولى بأنفسهم من العبيد بأنفسهم ، لأنه خلقهم فصورهم ، وركبهم وأحسن تقويمهم ، وسوى تعديلهم ، فلم يكن لهم بأنفسهم من العلم والتدبير ما دبر لهم ، وعرفوه ملكا قادرا قاهرا ، يفعل ما يشاء ، قد سبق علمه فيهم ، بما يكون فيهم ولهم وعليهم ، وجرى مع سابق العلم لهم بذلك قلمه في اللوح المحفوظ ، ليكون أوكد في قلوب العباد ، لأن سابق العلم غائب عن القلوب لا يدرى نفسه ، واللوح قد خط بالقلم فيه أمر محدود ، وشخص مخلوق ، وينبذ بالقلوب معانية ، فما عين القلب وأدركه أثبت عندهم مما لا تعينه القلوب ، ولا يمكن توهمه ، فخلق اللوح وأثبت مقاديرهم فيه ، لا حاجة به إلى ذلك ، وليكون أثبت على القلوب ، لتسكن النفوس وتستقر على ما جرى القلم به ، فإذا سكنت النفوس ، تفرغت القلوب لعبادته ، وحفظ حدوده ، وإقامة أموره ، وسقطت أشغال النفوس عن القلوب فيما يراد بها ، وما يكون وما يحدث ، لأنها قد أيست عن أن يكون غير ما جرى به القلم ، وعند الإياس تسكن النفوس ، وإنما دعانا إلى أن نعبد ، ونقيم حدوده ، ونقيم فرائضه ، ونتجنب مساخطه ، ولنا قلب واحد ، فأثبت في اللوح أرزاقنا وسعينا ، وآثارنا وأحداثنا ، ومدة آجالنا ، وعامة أمورنا ، لتطمئن النفوس ، وتخلص القلوب من وساوسها ، فتبده بفراغ ، وكل ذلك منه رحمة علينا ، وبين

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاسْتَخْرَجَ ذَرْيَتَهُ مِنْ ظَهْرِهِ ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ ، ثُمَّ رَدَّهُمْ إِلَى صُلْبِهِ ، ثُمَّ نَقَلَهُمْ مِنَ الْأَصْلَابِ إِلَى الْأَرْحَامِ ، وَمِنَ الْأَرْحَامِ إِلَى دَارِ الدُّنْيَا ، لِيَعْبُدُوهُ ، وَلِيُوفُوا لَهُ بِمَا عَاهَدَ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْمِيثَاقِ ، بَأَنَ لَا يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، إِلَى آجَالِهِمُ الَّتِي كَتَبَهَا فِي الْمَقَادِيرِ ، إِلَى أَنْ تَنْقُضِيَ مَدَّةَ الدُّنْيَا ، فَيُفْعَلُ بِهِمْ لِلْجَزَاءِ ، وَتَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ، وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، وَلِيَجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، لِيَكُونُوا فَرِيقَيْنِ ، فَرِيقًا فِي الْجَنَّةِ ، وَفَرِيقًا فِي السَّعِيرِ .

فَمَنْ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ قَوِيَتْ مَعْرِفَتُهُ ، وَاسْتَنَارَتْ بَنُورُ الْيَقِينِ ، فَاسْتَقَامَ بِهِ قَلْبُهُ ، وَاطْمَأْنَنَتْ بِهِ نَفْسُهُ ، وَسَكَنَتْ وَوَقَّتْ وَأَيَقُنَتْ ، وَأَتَمَّتْهُ عَلَى نَفْسِهَا ، فَفَرَضَتْ لَهَا بِهِ وَكِيلًا ، وَتَرَكْتَ التَّدْيِيرَ عَلَيْهِ ، فَإِنْ وَسَّوسَ لَهُ عَدُوٌّ بِالرِّزْقِ وَالْمَعَاشِ ، لَمْ يَضْطَرْبْ قَلْبُهُ وَلَمْ يَتَحَيَّرْ ، لِأَنَّهُ قَدْ عَرَفَ رَبَّهُ مَعْرِفَةً أَنَّهُ قَرِيبٌ ، وَأَنَّهُ لَا يَغْفُلُ وَلَا يَنْسَى ، وَأَنَّهُ رَعُوفٌ رَحِيمٌ ، وَأَنَّهُ رَبُّ غَفُورٍ رَحِيمٍ ، وَأَنَّهُ عَدْلٌ لَا يَجُورُ ، وَأَنَّهُ عَزِيزٌ لَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ الْأَشْيَاءُ ، وَأَنَّهُ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ، فَكَمَا خَلَقَهُ مُحْتَاجًا مُضْطَرًّا ، فَإِنَّهُ سَيُوصِلُهُ إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ يَرِيدُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، لَأَمِنْ حَيْثُ يَرِيدُ الْعَبْدُ ، عَلَى الْهَيْئَةِ الَّتِي يَرِيدُ الرَّبُّ ، لَأَعْلَى الْهَيْئَةِ الَّتِي يَرِيدُ الْعَبْدُ ، وَبِمَقْدَارِ مَا يَرِيدُ الرَّبُّ ، لَابِمَقْدَارِ مَا يَرِيدُ الْعَبْدُ ، وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي يَرِيدُ الرَّبُّ ، لَافِي الْوَقْتِ الَّذِي يَرِيدُ الْعَبْدُ ؛ فَغَامَةُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ قَدْ أَتَقَنُوا بِهَذَا ، إِيْمَانًا بِهِ ، وَقَبُولًا لَهُ ، وَلَمْ يَسْتَقِرْ ذَلِكَ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ ، حَتَّى إِذَا كَانَ وَقْتُ ، الْحَاجَةِ اضْطَرَبَتْ قُلُوبُهُمْ وَتَحَيَّرَتْ ، وَاشْتَغَلَتْ عَنْ خَالِقِ الْأَشْيَاءِ ، وَمَالِكِ الْمُلُوكِ ، وَأَهْلِ الْيَقِينِ الَّذِينَ قَدْ

مطيع لله ، ثم إن الله تعالى دعاهم إلى أن يوحدوه قلبا وقولا وفعلًا ، فمن قبل ذلك منه جملة ، فاستقرت المعرفة بأنه واحد ، فاطمأن به قلبه ، وترجم به لسانه عما في ضميره ، وعزم على الفعل مائلا له ، فقد آمن به . وهذا كله من العبد في وقت واحد ، فركب فيه الشهوات والهوى ، وجعل للشياطين فيهم وساوس يجرون فيهم مجرى الدم ، ويغوصون غوص النون في البحر ، وجعل القلب ملسكا على الجوارح ، فالشهوة تحرك البدن الساكن ، وترعج القلب ، والشيطان يمينه ويزين له ويعدده ، والهوى يميل به ويقوده ، فالمؤمن قلبه مطمئن بالإيمان ، والتوحيد ظاهر على لسانه ، فإذا جاء وقت فعل الأركان عمل فيه الشهوات ، وزين له العدو ، ومال به الهوى ، حتى يفعل الفعل الذي يخيل إليك في الظاهر أنه لم يؤمن بعهد ، فهو موحد بالقلب واللسان ، ولكن لغلبة الشهوة وقوتها ، فبظلمة هذا الهوى ، ووسوسة هذا العدو والتزين ، غلب على القلب لاعلى مافى القلب ، مما في القلب من المعرفة ، فالقلب به مطمئن ، ولكن صار مأسورا مقهورا ، وهو أبدا لمن غلب عليه وقهره .

خلق اللوح ، وجرى القلم بمقادير الخلق ، وخلق السموات والأرض ، والظلمات والنور ، والليل والنهار ، والملائكة ، والجنة والنار ، والجن والشياطين ، والجبال والبحار ، والدواب والأقوات والمعاش ، وسائر الخليفة . ثم خلق آدم عليه السلام ، فاصطفاه ، وجعله بديع فطرته ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه الأسماء ، وأبان فضله وكرم بنيته ، وحملهم في البر والبحر ، وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلا ، وسخر له ولذريته ما في

سائر الطاعات ، لأن في الذكر مدحه ، وجاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما أحد أحب إليه العذر من الله تعالى ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله تعالى جده » . حدثنا بذلك الجارود ، قال : حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ليس أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل ؛ من أجل ذلك مدح نفسه ، وليس أحد أغير من الله عز وجل ؛ من أجل ^(١) ذلك حرم الفواحش » ، ونذب العباد في غير آية من كتابه إلى أن ينشروا ذكره ، ويذكروا عنه جميل صناعته ، يقال تعالى : « والله الأسماء الحسنى فادعوه بها ^(٢) » . في كل ذلك يحثهم على مدحه وذكره بالجميل والثناء الحسن ، وفي كل اسم له مدحه ، وجميل ذكره ، ودعاهم إلى توحيده ، فقال : « لاتتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد » ^(٣) . وقال : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » ^(٤) أي وحدون ، لأنك لا تكون له عبدا حتى يكون لك ربا لا شريك له ، فمن أشرك به خرج من نظام التوحيد ، فهو وإن كان له عبدا من طريق الملك ، فالعبد بنفسه لم يصير نفسه عبدا ، فيكون قد وحده وعبده ، وإنما أطاعه لأن الله تعالى أمره أن يطيع ، فأطاع مولاه بأمر الله تعالى ، فمن أطاع بأمر الله فهو

(١) زيادة ليست في الأصل .

(٢) سورة ٧ ، آية ١٨٠

(٣) سورة ١٦ ، آية ٥١

(٤) سورة ٢١ ، آية ٢٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رب بسر وأمن ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

قال الشيخ الإمام العارف ، أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي ، رحمه الله تعالى :

إن الله أنشأ خلقه لإظهار ربوبيته ، ولبروز آثار قدرته ، وتبدير حكمته ، وليكون ذكره ومدحه مرددا على القلوب ، وعلى ألسنة الخلق والخلقة ، لما علم في غيبه ، فأنبأنا في تنزيله ، فقال جل ذكره : « وخلق الله السموات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت ^(١) » ، فأعلمنا لم ^(٢) خلق ، فقال : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ^(٣) » . فقال أهل اللغة : إلا ليوحدون ، ومثل ذلك قوله تعالى : « إياك نعبد ^(٤) » يعني نوحده ، لأن في توحيدهم إياه بأن لا إله إلا هو ، إقرار له بالملك والقدرة ، وإضافة الأشياء إليه . فهذه الكلمة تنتظم المدح ، وأباح ذكره على كل حال ، تقديمها له على سائر الحالات وأعمال البر ، وحصر ماسواه من الأفعال في أوقات مخصوصة ، مع ما ذكر في الكتاب ، وجرت به الأخبار عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، بتفضيل الذكر على

(١) سورة ٤٥ ، آية ٢٢

(٢) في الأصل : لما .

(٣) سورة ٥١ ، آية ٥٦

(٤) سورة ١ ، آية ٤

كتاب

أَرْبَ النَّفْسِ

لِلْإِمَامِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ بْنِ الْحَسَنِ الْحَكِيمِ التِّرْمِذِيِّ

فإذا فرحت به فقد تدنس بذلك الفرح ، فيصير غشاء عليه ، حجابا له من ذلك الفرح ؛ فكان أهل الصدق في هذه الطريق يلزمون هذا الباب الذى وصفت ، فكل شئ تفرح نفوسهم به من وجود لذة ذلك الشئ كأننا ما كان ، من طعام أو شراب ، أو لباس ، أو أهل ، أو ولد ، أو أخ ، أو مؤنس ، أو أصحاب ، أو أمكنة ، أو عرض من عروض الدنيا ؛ فكانوا يتوقون الفرح لذلك ، فيأخذون من ذلك الشئ الذى لا بد لهم منه على الضرورة ، ثم يهربون من لذته ، خوفا على النفس أن تفرح بذلك ، فإذا دام على ذلك صاحبه ، فذلك تقوى الباطن . وأما تقوى الظاهر فهو حفظ الجوارح مع الخلق والملائكة .

فإذا فعل ذلك فأدى الفرائض لمواقبتها^(١) وحدودها ، واستعان على النفس بروية الموتى والمقابر وأهل السجون ، والمواضع التى فيها النيران العظيمة ، من الأتون ومذاب جواهر الزجاج^(٢) ، فإن فى ذلك قعاً للنفس ، أورثه فعله بنفسه الغم ، ومن الغم الهم والأحزان . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما عبد الله عز وجل بمثل طول الأحزان » .

ثم كتاب الرياضة ، محمد الله ومنه

وصلى الله على محمد وآله وصحبه ، وسلم تسليما كثيرا

(١) فى ١ : « بمواقبتها » .

(٢) فى ١ : « الرضاس » .

وثناء الرب عز وجل ومدائح ونجواه ، حتى تأنس بذلك ، وتألف الذكر ، حتى ينكشف الغطاء بعد ذلك ، فيألف ربه عز وجل .

وكذلك تجد الصبي قد ألف ثدى أمه ، حتى لا يكاد يصبر عنه ساعة ، فإذا فطمته اشتد على الصبي ، وبكى وقلق ، فإذا دام الفطم^(١) نسيه ، وأقبل على الطعام والشراب ، فكلمها وجد حلاوة الأطعمة والأشربة هجر الثدي ، وعاف^(٢) ذكر^(٣) اللبن .

وكذلك تجد الدابة تؤخذ من الدواب السائمة ، لتؤدب وتعود الركوب ؛ ففي الابتداء تنفر عن اللجام والسرّج ، فتشكل حتى تسرج ، وتلجم حتى تعتاد ، وتعلم السير حتى تصير أذنها إلى العنان ، وقلبها إلى إشارات الراكب بذلك العنان ، فإذا بلغ بها القنطرة وثبت وثبة لا تدعها تجور ، فتعتاد ذلك ، فليس في كل مكان يوجد قنطرة ، فيعوّدها الوثب وسيرها في جلبة^(٤) الصناعين ، مثل^(٥) الحدادين والنجارين^(٦) فإذا نفرت من تلك الأصوات أو تركت سيرها ، أديها حتى لا تنفر ولا تتحير ، حتى تصير أديبة^(٧) سيورة .

فكذلك الآدمي ، يؤدب كما تؤدب هذه الطيور والدواب ، بالفطم عن عاداتها ، وكل شيء تجد النفس لذته في وقت تفرح بذلك الشيء ،

(١) في ١ : « القطع » .

(٢ - ٣) في ١ : « وعافا ذلك » .

(٣) في ب : جملة .

(٤ - ٥) في ١ : الحدادين والتجار .

(٥) في ب : « أذنية » .

الأسباب ، فكلماً ازداد ^(١) العبد معرفة وعلماً بربه عز وجل ، استنار قلبه وصدره ، وانتقص من الغفلة ، ومن هذه الخصال السبع كلها ، حتى يمتلئ صدره من عظمة الله عز وجل وجلاله ، فعندها كشف الغطاء ، وصار يقينا ، وزايله شرك الأسباب ، وماتت الشهوة ، وذهب الغضب ، وذهبت الرغبة والرغبة ، فلا يرغب إلا إلى الله عز وجل ، ولا يرهب إلا منه ، ولا يغضب إلا في ذات الله عز وجل والله ، ولا يشتغل بشهوة إلا بذكر الله عز وجل .

قال له قائل : صف لنا من رياضة النفس شيئا . قال : ^(٢) إن النفس ^(٣)

إذا اعتادت اللذة والشهوة ، والعمل بالهوى ، أقبل على فطمها عن العادة في كل شيء ، فكلماً اشتد عليها فطم شيء فأقبل قبل ذلك الشيء حتى تظمها عنه ، حتى يصير قلبك حرا ، يألف مع الله عز وجل بربه ولطفه ، فقد رأيت البازي كيف يلقي في البيت ، وتخطأ عيناه ، حتى ينقطع ^(٤) عن الطيران ، ويرى باللحم ، ويرفق به ، حتى يأنس بصاحبه ^(٥) ، ويألفه إلفا ، إذا دعاه فسمع صوته أجابه .

فكذلك النفس ، إنما تجيب ربها عز وجل فيما أمرها بعد فطامها عن عادات الأمور التي اشتت ولذت ، فإذا ^(٥) فطمها ألزمها ^(٥) الدعاء ،

(١) في ب : « زاد » .

(٢ - ٢) زيادة من أ .

(٣) في أ : « يظم » .

(٤) في ب : « صاحبه » .

(٥ - ٥) في أ : فطمها ألزمها .

فالمعرفة رؤوس أمواهم ، والحركات تجارتهم ، ومرضاة الله عز وجل أرباحهم ، قال الله عز وجل : « والله يعلم متقلبكم ومثواكم ^(١) » ، تقبلوا في مرضاته ، وثبوا في جناته ، تحت عرشه في جواره ، فأكرم الله تعالى هذا المؤمن بمعرفته ، فأحرزه في ذمته ، وحرم عرضه ودمه وماله ، وعظم حرمة ، فأعلمهم بالله أعظمهم حرمة ، وأقربهم وسيلة ، وأكرمهم عليه ، فمثل العالم به كمثل رجل نظر إلى شخص رجل ، حتى عرفه بالوجه ، فهو ساكن القلب ، حتى إذا عرفه بمخصلة من خصال الشرف ، فوجد قلبه قد تغير له إلى التعظيم والإجلال ، فإن كان قد جمعت هذه الخصال في رجل واحد ، مما وصف الله عز وجل بها نفسه ، من الجود والغنى ، والرأفة والرحمة ، والسماحة والكرم ، والمعرفة بالأمور ، والقوة والتدبير ، ومحاسن الأخلاق ، عظم شأن الرجل عندك ، حتى تهتم في ذكره وأوصافه ، فمن كشف له الغطاء حتى عرف ربه عز وجل بأسمائه الحسنى ، وبأمثاله العلاء ، كان أسبى لقلبه ، وأهيج لذكوره .

وابن آدم مطبوع على سبعة ، وهي الغفلة ، والشك ، والشرك ، والرغبة ، والرغبة ، والشهوة ، والغضب . فهذه سبعة أخلاق ، فإذا جاء نور الهداية حتى عرف ربه عز وجل ووحدته ، ذهبت الغفلة ، وذهب الشك والشرك ؛ فهو يعلم ربه يقيناً ، وينفى عنه الشرك ، وزال الشك عنه . ثم لما جاءت الشهوة ، فأظلم الصدر بدخانها وفورانها ، ذهب بضوء علمه واستنارته ، وتخير في أمر ربه عز وجل كالشاك ، وظهر شرك

وجل ، يسألونه السلامة ، وموكلون بوزن الأعمال ، وعرض الدواوين ؛ وموكلون بحمل^(١) الأعمال من الخزائن إلى الموقف ؛ وموكلون بتشجيعهم إلى الجنان من الموقف ؛ وموكلون في الجنان بالخزانة : قهارمة ، وزوار ، وحملة هدايا من رب العالمين ؛ وجبريل صلى الله عليه وسلم موكل في الدنيا بأداء الوحي ، وتبليغ الرسالة ، ويوم القيامة بوزن الأعمال ، وفي الجنة بالنداء من بطنان العرش ، للزيارة إلى رب العالمين .

فوجدنا الملائكة كلهم مسخرين لنا في الدنيا ، ويوم القيامة ، وفي الجنان إلى الأبد ؛ فأدم عليه السلام خليفة الله عز وجل في أرضه ، والملائكة جند الخليفة ، يعملون له ولولده ما ذكرنا في ولده ، فما خرب ولده عمرته الملائكة ، وما أفسد ولده أصلحته الملائكة ، وما دنس ولده غسلته الملائكة^(٢) وطهرته .

وروى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه أنه قال : قالت الملائكة : ياربنا ، منا المقربون ، ومنا الصافون المسيحون ، ومنا الكرام الكاتبون ، ومنا ومنا ، جعلت الدنيا لبني آدم يأكلون ويشربون ، فاجعل لنا الآخرة . قال : لن أفعل . فعادوه بمثل مقاتلهم ، فقال : لن أفعل . ثم عادوه في الثالثة ، فقال : لن أفعل ، لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي ، كن قلت له : كن فكان ، هم عبادي المقربون ، والملائكة عباد محبوبون ، ومكرمون بالعبادة والطهارة ، والآدميون خدم وتجار معاملون ،

(١) في ب : « بعرض » .

(٢) زيادة من أ .

بالنبات ، وموكلون بالجبال ، وموكلون بالبحار ، وموكلون بالليل والنهار ، وموكلون بالحر ، وموكلون بالبرد ، وموكلون برزق الخلق صباح كل يوم ، وموكلون بالثلج ، وموكلون بأعمالهم : حفظة كتبه ، وموكلون بالحراسة ، وهم العقبات ؛ وموكلون بالهداية على القلوب ، وموكلون بالهداية في الأسفار بالاستقامة ^(١) ، وموكلون بإتمام الكلام ، فإذا قال : الحمد لله ، قال الملك : رب العالمين ؛ وإذا قال العبد : سبحان الله ، قالت الملائكة : وبحمده ، ويكتب ذلك لصاحبها ^(٢) ؛ وموكلون بصلاة الآدميين في صفوفهم ، فكلما زاد رجل زاد معه ملك معه رحمة ؛ وموكلون بحجهم ، وفي مشاهدهم وموقفهم ؛ وموكلون بالزحف للنصر عند لقاء العدو ؛ وموكلون بجنازهم للتشييع ^(٣) ، فهم أمام الجنازة ؛ وموكلون بلياسة القدر ، ونزول الروح ، والتسليم على الآدميين ؛ وموكلون بالأعياد وحمل الجواز ؛ وموكلون بالتثييت للآدميين في أعمالهم ؛ وموكلون بنزع الأرواح منهم ، ورفعها إلى الله عز وجل مع ملك الموت ؛ وموكلون بتشيع أرواحهم إلى العرض على الله عز وجل ، في مقام العرض ؛ هذا كله في الدنيا ؛ ثم إذا قامت القيامة ، فوكل بنفخ الصور ، وموكل بالبشرى للموحدين ، وموكل بحمل الكسوة للآدميين ، وموكلون بالرحمة ، ليقسموها عليهم ، وموكلون بحببات النار ، ينادون ربهم عز

(١) زيادة من ب .

(٢) في ب : « لصاحبه » .

(٣) في ب : للتشييع .

والسابقون الذين وصلوا إلى الله عز وجل في مقامه ، يترضى ربه عز وجل ، ثم يلحقه العمل على الأثر ، فالنيت متفاوتة ، فهو لاء خدم .

وأما الملائكة عليهم السلام ، فإنما يعملون في مصافهم ومقاومهم على الأبصار ؛ وإنما خص جبريل عليه الصلاة والسلام من بين الملائكة ، لأنه خادم ربه عز وجل ، لأنه بين يديه على ساقه يخدمه باختلاف الأحوال ؛ وأهل السموات في مصافهم ؛ فالملائكة في أعلى الخلق مكانا ، وهم سخرة للآدميين . فأما إسرئيل عليه الصلاة والسلام فقابض الوحي ^(١) ، ومؤديه إلى جبريل عليه السلام ، وصاحب الصور ، يدعوه إلى الخسر وقبض الجزاء . وأما جبريل عليه السلام فصاحب الرسالة . وأما ميكائيل عليه السلام فقابض أرزاق الآدميين ، والموكل بالقطر والنبات والرياح لمعاش الآدميين . وأما ملك الموت عليه السلام فقابض أرواحهم . وأما حملة العرش فموكلون بالاستغفار للآدميين . وأما الكوريون وأهل عليين فموكلون بالاستغفار والتضرع ، والبكاء على أهل الذنوب من الآدميين . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لما أسرى بي ، سمعت دويا ، فقلت ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا بكاء الكوريين على أهل الذنوب من أمتك . وأما أهل السموات فموكلون في صلاتهم بالاستغفار ووفارة التقصير ؛ وآخرون موكلون بالرياح ، وآخرون موكلون بالسحاب ، وآخرون موكلون بالشمس ، وموكلون بالقمر ، وموكلون

حدثنا الفضل بن محمد ، حدثنا زريق بن الورد الرقي ، حدثنا أسلم بن سالم ، عن عبد الغفار بن ميمون ، عن عبد الملك الجزري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ترك الصلاة في الصف الأول ، مخافة أن يؤذى مسلما أو يزاحم أحدا ، فصلى في الصف الثاني أو الثالث ، أضعف الله عز وجل أجره على من صلى في الصف الأول » . فهذا بعقله نال زيادة الثواب على الصف الأول ، والآخر بغفلته ^(١) وجهله سقط عن هذا الثواب . فهذا تفسير : « إنما أجرى الناس على قدر عقولهم » . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما يروى عنه . « لا يعجبكم إسلام رجل حتى تعلموا ما عقدة عقله » .

وحدثني بذلك أبي رحمه الله ، حدثنا جندل بن واثق الكوفي ، حدثنا عبد الله بن عمر الرقي ، عن إسحاق بن أبي فروة ، عن نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فالمصدقون المخلطون ^(٢) قلوبهم محجوبة بالشهوات ، فنتيهم النهوض ^(٣) بالقلب ، إذا نهضوا لم يجدوا منفذا ، فيقفون حيث بلغوا من الجو . وأما الذين فتح لهم في الغيب ، فإن قلوبهم تنهض إلى العلا ، حتى تبلغ مقامه ، فهناك ينتغي مرضاة ربه تعالى ، وحركات الجوارح عند فراغه من العمل تلحقه على أثره ، فذلك النهوض هو نيته ؛

(١) في ب : « بعقله » .

(٢) هكنا في أ ، ب .

(٣) زيادة من أ .

فوقف في الصف الثاني عن غفلة لم^(١) ينل من صلاة الرب عز وجل شيئا ، ولا من هذه الرحمة التي وصفت عن ابن عباس رضى الله عنه ، فمن دخل فنوي أنى لو وجدت مكانا لدخلت في الصف الأول ، فبهذه النية استوى هو بالصف الأول ، وله مثل أجورهم لما نوى ، كأنه فيهم . ثم إذا تمت أن يدخل في الصف الأول ، ونوى ذلك ، وامتنع وتخرج^(٢) مخافة أن يؤذى مسلما ، أو يضيق عليه ، يضاعف أجره على من في الصف الأول ، بما اتقى أذى المسلم .

كذلك روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن النية ، وفي شأن التقوى ؛ عن أبي كبشة الأنصاري رضى الله عنه ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أحدثكم حديثا فاحفظوه ، إنما الدنيا أربعة نفر : عبد رزقه الله عز وجل فيها مالا وعاما ، فهو يتقى الله عز وجل ، ويصل رحمه فيه ، ويعطى الله عز وجل منه حقه ، فهو بأفضل المنازل . وعبد رزقه الله عز وجل علما ، ولم يرزقه مالا ، فهو صادق النية ، يقول : لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان ، فأجرهما سواء . وعبد رزقه الله عز وجل مالا ، ولم يرزقه علما ، فهو يتخبط في ماله بغير علم ، فلا يتقى فيه ربا ، ولا يصل فيه رحما ، ولا يعلم الله فيه حقا ، فهذا بأخبث المنازل . وعبد لم يرزقه الله عز وجل مالا ولا علما ، فهو يقول : لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان ، فهو بنيته ، فوزرهما سواء .

(١) في ب : « فلم » .

(٢) زيادة من ١ .

في كل عمل ، والنية ^(١) النهوض ، يقال في اللغة . ناء ينوء ، أى نهض
ينهض ، فالقلب يرتحل إلى الله عز وجل ، حتى يصل إلى سورة المنتهى
إن كان له طريق ، فإن حبس في الطريق فلهزيمة احتبس ، ولسوء
الأدب منع وانسد الطريق ، فعلى أى حال كان ، فقد نهض من مكانه
إن وجد الطريق أو لم يجد . ويقول للجارحة التي تعمل ذلك العمل
تحركي بذلك العمل في حركاتك ، وأنفذي العمل على أثرى ، فإني
واقف بالباب ، أبتغي من ربي عز وجل مرضاته ، بما ينفذ إليه على
أثرى ، فهذه النية .

ثم الناس في نياتهم على درجات ، على تفاوت عقولهم ؛ ولذلك قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما يروى عنه ، قال : « يعملون الناس الخير
ويعطون أجورهم على قدر عقولهم » . وروى عن الله عز وجل قال : يا موسى ،
إنما أجزى الناس على قدر عقولهم » . قال له قائل : صف لنا شيئاً منه ،
كيف تفاوت على قدر العقول ؟ قال : مثل رجل دخل المسجد فوجد
الصف الأول قد قام ، فوقف في الصف الثاني ، فقد سقط من درجة
الصف الأول ، ودرجته أنه جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن
الله وملائكته يصلون على الصف الأول ، وجاء أن الرحمة تنزل على الإمام
مائة رحمة ، فيأخذ من بحاله خلفه مثل ما للإمام ، ثم الذي عن يمينه إلى
منتهى خمسة وسبعين ، ثم الذي عن يساره خمسون ، فمن دخل المسجد

(١) زاد هنا في ١ : « هو » .

استرواحا إليه ، وبه فرحا ، حتى ملأها غما ، حتى طهر قلبه ، وتجلت فيه أنوار العزيز الماجد الكريم ، على ما ذكرنا بديا^(١) ، وعريت الملائكة من الشهوات والجوارح والأجسام والأجواف والضرورات ، فلا يحتاجون إلى طعام ولا شراب ، ولا كسوة ولا كن يستكنونه من الحر والبرد ، فنجت من قن الآدميين وضروراتهم ، ومكايد العدو ، وأظهر خلقهم من التدبير بقوله « كن » . وعاملهم من ملك الجبروت ،^(٢) ومقاومهم في ملك الجلال^(٣) ، وأظهر خلقنا من يده ، وعاملنا من ملك الرأفة والرحمة ، ومقاومنا في ملك المحبة ؛ فالملائكة محبوبون على حال واحد ، لا ينفكون ولا ينقلون عنها . والآدميون خدم بين يديه عز وجل ، يتقلبون من حال إلى حال ، وكل أحوالهم خدمة ، وإنما صار هكذا لأن المعرفة من الملائكة على الأبصار ، والمعرفة من الأميين على القلوب ، والقلب أمير على الجوارح ، فحركات الجوارح كلها من تقلب القلب بمشيثاته ، ومشيثاته بمشيثاته ربه عز وجل ، فأى جارحة حركها فإنما محرکہ قلبه ، والقلب شاخص إلى الله عز وجل بوليه في تلك الحركة ، فتلك خدمة منه له ، مأخوذة هذه اللفظة من خدمة الساق ، لأن الآدمي إذا قام منتصباً ، قام على خدمة ساقه ، فهو بالقلب قائم بين يدي ربه عز وجل ، ومنه تتأدى الحركات إلى الجوارح ، حتى تظهر على الجوارح ، فقيامه ونهوضه إلى ربه عز وجل بتلك الحركة هو خدمته ، وهو النية التي ينوي بها العبد

(١) زيادة من ١ .

(٢ - ٣) زيادة من ١ .

يتحول ذلك الفرح من يده إلى ذلك الشراب ، وإنما يزد ويغلي بحرارة يده الملعونة ، لأنه خلق من النار ، فإذا شر به الشارب ، وقد تحول ذلك الفرح من يده في ذلك الشراب ، دب ^(١) في هذا الشارب ، وانكمن العقل ، لتدنس يده ورجاسته ، فشاربه يحتمل مرارته ^(٢) ، وذهاب عقله ، وتلف ماله ، وألم جسده ، والآفات التي تحمل به ، وإنما يحتمل ذلك كله من أجل ذلك الفرح الذي دب فيه ، حتى يصده عن ذكر الله عز وجل وعن الصلاة ، ووجد سبيلا إلى أن يحرش بينهم ، ويغري بعضهم ببعض ، فخرمه الله عز وجل ، لئلا يفرح بفرح هو حظ أبلّيس لعنه الله تعالى .

فكذلك أصوات المعازف والملاهي ، تلك الأصوات ممزوجة بالفرح الذي بيده ، فلا يلتذ المستمع إلا بما يمازجه من الفرح الذي بيد العدو ، فإذا مازجه وسمع الآدمي ، هاج بالفرح منه ، ودب في جميع جسده ، وطرب حتى وثب ورقص كالقرد ، فخرم الله عز وجل هذه المعازف ، للفرح الممازج من حظ العدو فيها ، وأطلق هذه الأشياء التي لا غنية بالآدمي عنها ، مما هو له ^(٣) غذاء أو معاش ، ثم حذر أن يلهيه ذلك الفرح حتى يأشرو ويبطرو ، ويتعدى الحدود . فالكيس حسم باب الفرح عن نفسه ، من كل حلال أو حرام ، ومن جميع أعمال البر ، مما يجد ^(٤) في النفس

(١) في ١ : در .

(٢) في ١ : « من لذته » .

(٣) زيادة من ١ .

(٤ - ٤) في ١ : « فيه لنفسه » .

من أبلّيس ، لامن هداية الله عز وجل ومعرفته ، وإنما وصل إلى غواية آدم صلى الله عليه وسلم ، بما استفرحوا بصوته من الفرح .

روى في الخبر أنه لما دخل الجنة صوت من مزمار له ^(١) ، حتى

كادت حواء تطير من الفرح ، فقالت ما هذا الصوت ؟ قال : لسروري ^(٢)

بمكانكما ، ثم قلب المزمار ، ففاح نياحة أخذ بقلبها ، حتى امتلأت حواء

خوفاً ، فقالت : ما هذا الصوت ؟ فقال حزنا عليكما أن تموتا أو تخرجا

منها . فهناك دلها على شجرة الخلد ، لكي يأكلا منها ، فيخلدا فيها .

ففي وقت الفرح دلها على شجرة الخلد ، ولتخويف الزوال دلاهما بفرور ،

حتى ذاقا الشجرة ، فلما صارا محجوبين بالهم ، فلما ذاقا عريا من اللباس ،

وانكشف الغطاء عن الذنب ، فوليا ^(٣) في الجنة هارين ، فبالفرح ،

خلص ^(٤) العدو إليه ، حتى أكل من الشجرة ، فصرعه . وحرم الله عز

وجل الخمر لما فيها من ذلك الفرح ، لأن أبلّيس لما سرق العنب من

سفينة نوح عليه الصلاة والسلام ، وافتقده نوح عليه السلام ، جاءت

الملائكة ، حتى يقضى ^(٥) جبريل عليه السلام ^(٥) بينه وبين نبي الله

صلى الله عليه وسلم على الثلث والثلثين ، فكل ما وجدته نيا أو مطبوخا فيه

بقية من حظله لم تأكله النار ، خاض فيه يديه بفرحه الذي أعطى ، حتى

(١) زاد في ١ : « فرحا » .

(٢) في ١ : « السرور » .

(٣) في ١ : « لنا » .

(٤) في ١ : « خلق » .

(٥ - ٥) زيادة من ب .

خلق الجنة ، خرجت الأغراس من باب الرحمة ، وخرج غرس العنب من باب الفرح ، فذلك أوّل ما أكل آدم صلى الله عليه وسلم حين دخلها العنب ، فامتلاً فرحاً .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل : « ما أول ما يأكل أهل الجنة من الجنة ؟ » قال : العنب . : وأول ما أكل آدم العنب ، فامتلاً فرحاً ، ووضع من الفرح في تلك النار التي فيها الزينة بباب النار التي سميت شهوات ، فجعل ذلك الفرح حظ إبليس ، حتى يأخذه فيضعه في الأشياء التي يغوى الآدميين بها ، فلما أضل إبليس المشركين بذلك الفرح ، دخل الأشجار وكل مبهود من دون الله عز وجل ، فصوت منها بذلك الفرح ، فكل من يتبع ^(١) صوته ، سبى ذلك الفرح قلبه ، حتى يحبيه إلى الشرك وإلى عبادته ، فهو يرى أنه يعبد الشجرة والوثن ، وإنما يعبد الطاغوت ، وإبليس طغى حتى بلغ غاية الطغيان ، فقبل طاغوت ، وذلك قول الله عز وجل : « كلّ حزب بما لديهم فرحون ^(٢) » . فذلك الفرح لكل حزب من الذي أعطى إبليس ، حتى أوردته على قلوبهم بصوته ، وذلك قوله عز وجل : « واستغفر من استطعت منهم بصوتك ^(٣) » . وصوته مع ذلك الفرح ، ولولا ذلك ما أجابوه ، فهم فرحون بأديانهم ، وإنما يفرحون بالله عز وجل ، ولكن غير مقبول منهم ، وهم يحسبون أنهم مهتدون بذلك الفرح ، لأنهم تناولوه

(١) في ١ : « سمع » .

(٢) سورة ٢٣ آية ٥٣

(٣) سورة ١٧ آية « ٦٤ »

وجل أنه ناظر إليه في هذا العمل ، ولا هو^(١) ذا كر لعرض الأعمال^(٢) يوم القيامة ، فهو يعمل على الغفلة على التجويز ، فإنما يعمل كل صنف منهم على نوره الذي في صدره .

فجملة ما وصفنا من أمر السير إلى الله تعالى أن يتقى فرح النفس ، أن يتركها حتى تفرح بشيء من أحوالها ، أو بتناولها من الدنيا وأعمال البر ، كما ظهر فرحها بنفس عليها بالمنع لها ، والانتقال عنه حتى يملأها غما ، فيذوب الفرح الذي يتأدى إلى القلب ، ويظهر النور ، ويظهر في ذلك النور الفرح بالله عز وجل ، لأن ذلك النور يؤديه إلى صفات الله عز وجل ، وإلى عظمته وجلاله ، وجماله وكبريائه ، ومهائه وسؤدده ، وكرمه وجوده ، وبره ولطفه ، ومننه وإحسانه ورحمته ؛ فحال أن يعتقد القلب هذا الفرح حتى يدوم له ذلك ، وتزول عنه أفراح النفس ، ثم يصير في فرحه بالله عز وجل حزينا ، لأنه محبوس عنه برمق الحياة في دار الدنيا ، مشتاق إلى ربه عز وجل ، قد أنس به ، واشتاق إلى لقائه ، واستوحش من الدنيا وأهلها ،^(٣) وهمته ذكر الله^(٤) ، وعبودية شهورته ، وموته راحته ويوم عيده .

وتحقيق ما وصفنا من ضرر^(٥) فرح النفس ، أن الله عز وجل حرم المعازف والخمر على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، وما نطق به الوحي في شأن الخمر ، وذلك أن الله عز وجل لما خلق الفرح ، وجعل^(٦) له بابا ، فلما

(١ - ١) في ب : « العرض لأعمال » .

(٢ - ٢) في ا : « فتعبيه رؤى الله » .

(٣) في ب : « سور » .

(٤) في الأصل : جعل .

بمنزلة رجل دعاه الملك ليقطع ثوبا بين يديه ويخيطه ، فلا يترك هذا الصانع من خفة اليد ، وحسن الابتداء ، ووجازة الفعل ^(١) ، وإحكام الخياطة وزينتها ، إلا صنعه بين يديه ، ويريد أن يتجلى بذلك عنده ، فيكتسب به جاها عنده ومنزلة ؛ والآخر رجل دعاه الملك ، وقال : اذهب بهذا الثوب فاقطعه وخطه قميصا ، واحمله إلى ، حتى أنظر إليه ، فلما غاب عنه ترك خفة اليد ، وحسن الابتداء ، ووجازة الفعل ^(٢) ، وإحكام الخياطة ، وأتقنه وزينه ، لأنه ذا كر العرض عليه ؛ والآخر دعاه الملك ، فقال : اذهب بهذا الثوب فاقطعه وخطه ، وأنفذه إلى فلان الراعي ، فلما غاب عنه رفع عنه باله ، فكيف قطعه وخطه جوزه ، لأنه لم يشعر برؤية الملك ، ولا ذكر العرض عليه ، وإن مابه ارتفاع العمل ، فيقول : قد عملت ، وأخذ الأجرة ؛ وإنما جراه على ذلك غفلته عن رؤيه الملك ، وعن العرض عليه .

فعمال الله عز وجل ثلاثة أصناف ، عامل يعمل على الترائى ، فلا يترك زينة ، ولا مبادرة ، ولا سرعة ، ولا خفة يد ، ولا طهارة ، ولا تعظيما ، ولا وجازة ، ولا مسابقة إلا جاء بها ، يريد أن يتحلى بذلك عند مولاه عز وجل ، وعامل ليس له هذا الترائى ، وهو محبوب القلب عنه بالشهوات ، صادق في ابتغاء مرضاته ، ذا كر للعرض عليه ، فلا يترزين ، ولا يبادر ، ولا يعظم ، ولا يسارع ، ولا يوجز ، ولا يسابق ، ولكنه يعمل على الأحكام وحفظ الحدود ، وإتمام الأمر بالأركان . وعامل لا يذكرك رؤية ربه عز

(١) في ١ : « العقل » .

(٢) في ١ : « العقل » .

في تلك البحار التي من وراء الدنيا ، إلى يوم القيامة ، فلا تستقر ، وما في جوارها أبعد منها ، صارت ثمانى فلق ، فطارت هربا وفرقا ، حتى وقعت أربعة منها في حرم الله عز وجل ، وأربعة في حرم الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وخر موسى عليه الصلاة والسلام صعقا ، فصارت الأرض كلها ذات بهجة وزينة ، حتى ظهرت الكنوز على ظهر الأرض ، وأبصرت العميان ، وصح كل مريض ، وبرئ كل زمين ، وانفتحت الأرحام ، فحملت كل عقيم ، وحلى كل أجاج .

فأعلم في هذا الحديث أن الشمس إنما ذهب ضوءها خسعة^(١) لله عز وجل ، وخشوعها خروجها من سربالها التي^(٢) سربت به من نور العرش ، فتهافت الضوء ؛ فكذلك النفس إذا أحست بالتجلي خسعت له عز وجل ، وخرجت من جميع شهواتها إلى الله عز وجل ، وتهافت أفراحها ، وطرات الشرور ، فصارت ذبلة كالميتة ، فتخلص القلب من ذلك ، وتخلص من أدناسها ، فوجد السبيل إلى الله عز وجل ، بما فيه من المعرفة والعقل ، ف قرب^(٣) ثم قرب ، ثم زيد نورا ، حتى مكن له بين يديه ، فهو يعبد كانه يراه ، وهو قول جبريل عليه السلام . « ما الأحسان ؟ قال . أن تعبد الله عز وجل كأنك تراه » . لحسن العبادة مع الترائي ، فإذا كان مجبوبا فإنه يعبد الله ولا يلتبس الحسن والزينة في العبادة ،

(١) في ب : « خسعت » .

(٢) كذا في الأصل والصواب : الذي .

(٣) في ب : « قرب » .

ينفكت حتى يسود القلب كله ، فإذا تاب ونزع صقل قلبه » . فإثما ينصقل
بالأنوار حتى يتجلى كالمراة المجلية ، فإذا صار كالمراة تراءت ^(١) له الدنيا
على هيئتها ، والآخرة على هيئتها والمسلوك ، فإذا لاحظ في المسلوك
عظمة الله عز وجل جلاله ، صارت الأنوار كلها نورا واحدا ، فامتلا
الصدر شعاعا ، بمنزلة رجل نظر في المراة ، فأبصر صورة نفسه فيها ،
وأبصر ما بين يديه وما خلفه فيها ، فإذا قابل بها عين الشمس ، وقع
الشعاع في البيت ، فأشرق البيت من تقابل النورين : نور عين الشمس ،
ونور المراة ^(٢) ؛ فكذلك القلب إذا جلى فأنجلي ، فلاحظ العظمة والجلال ،
تجلت العظمة ^(٣) بين الحجاب ^(٣) لذلك القلب المجلى ، لأنه طاهر من
أدناس المعاصي ، وأدناس الشهوات ، وأدناس الهوى ، والتقى النوران
فامتلا القلب شعاعا ، فهناك تموت النفس ويخضع القلب .

حدثنا سفيان بن وكيع ، وقتيبة بن سعيد ، قالوا : حدثنا عبد الوهاب
الثقفي ، عن خالد الحذاء ، عن أبي قلابة ، عن النعمان بن بشير رضي الله
عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « إن الشمس والقمر
لا ينكسفان لموت أحد ولا حياته ، ولكنه إذا تجلى الله عز وجل لشيء
من خلقه خضع له ؛ ولذلك لما تجلى لطور سيناء ، صارت البقعة التي وقع التجلي
عليها كالحباء المبثوث ، وما في جوارها ساخت في الأرض ، فهي تذهب

(١) في ب : بدأت . وفي أ : تراءت .

(٢) زاد هنا في أ : « من الحجاب » .

(٣ - ٣) زيادة من ب .

وهي تضحك وتقول : بخ لك يا حارثة .

قال أبو عبد الله رحمه الله تعالى : فإنما وصل العبد لله هذه المنزلة بتلك الأنوار ، ألا ترى إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا عبد نور الله عز وجل الإيمان في قلبه » .

حدثنا أبي حدثنا محمد بن الحسن المكي ، عن عبد العزيز بن أبي رواد ، يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بمثل حديث يوسف ، إلا أنه قال : « لكأنني أنظر إلى ربي عز وجل فوق عرشه ، يقضى بين خلقه » .
فقد أعلم أن الإيمان في القلب ، ولا يستنير في الصدر ، لإحاطة غيوم الشهوات ، ورين الذنوب بالقلب في الصدر . حتى إذا تاب العبد صقل قلبه بالتوبة ، فإذا جاهدتها وراضها حتى ينقطع دخان شهواتها ، وفوران الهوى ، جاءت الأنوار مددا للإيمان الذي في القلب ، فصار القلب ذا شعاع وإشراق في الصدر .^(١) فإذا أشرق في صدره^(١) ، فذلك عبد نور الله عز وجل الإيمان في قلبه ، فلما نوره استنار في صدره ، فصدرت الأمور إلى الجوارح من ذلك النور ، مع الخوف والخشية والحياء ، فعملت الجوارح على الحدود والمقدار الذي أمر ، مع البهاء والزينة .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن العبد إذا أذنب ذنبا نكت^(٢) في قلبه نكتة سوداء ، فإذا عاد نكت^(٢) أخرى ، فلا يزال

(١ - ١) زيادة في ب .

(٢) في أ : « نكتن » .

بعد الموت . حدثنا عبد الجبار بن العلاء بن^(١) يوسف بن عطية ، قال : سمعت ثابتا البناني رحمه الله تعالى يذكر عن أنس رضى الله عنه ، قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى إذ استقبله رجل شاب من الأنصار ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمنا بالله عز وجل حقا^(٢) . قال : انظر ما تقول ، فإن لكل قول حقيقته ، قال : يا رسول الله ، عرفت^(٣) نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى ، فكأننى بعرض ربى بارزا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاوون فيها ، وإلى أهل النار كيف يتعاوون فيها . قال : أبصرت فالزم . عبد نور الله الإيمان فى قلبه ، فقال يا رسول الله ، ادع الله لى بالشهادة ؛ فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنودى يوما فى الخيل^(٤) ، فكان أول فارس استشهد ، وأول فارس ركب ، فبلى أمه فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله ، أخبرنى عن ابنى إن يك فى الجنة لم أبك عليه ، ولم أحزن ، وإن يك غير ذلك بكيت عليه ما عشت فى الدنيا . فقال : يأم الحارث ، إنها ليست جنة ، ولكنها جنان ؛ والحارث فى الفردوس الأعلى . فرجعت

(١) لعله : عن . فإن عبد الجبار بن العلاء بن عبد الجبار الأنصارى هذا راو ، ويوسف بن عطية راو آخر (انظر خلاصة تذهيب تهذيب الكمال ، فى أسماء الرجال للخزرجى) . ويؤيده قوله فى صفحة ٧٠ : « بمثل حديث يوسف » .

(٢) زيادة فى ١ :

(٣) فى ب : « عريت » .

(٤) فى ١ : « الجبل » .

منه حبا ، فلم يشف الوصول إليه بتلك القربة وذلك الفرح به ، دون رؤيته في الجنة .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن من أمن الناس بوائقه ، والورع سيد العمل ، من لم يكن له ورع يردده عن معصية الله عز وجل إذا خلا بها ، لم يعبا الله بسائر عمله شيئا » . فذلك مخافة الله عز وجل في السر والعلانية ، والاقتصاد في الفقر والغنى ، والصدق عند الرضا والسخط ؛ إلا أن المؤمن حاكم على نفسه ، يرضى للناس ما يرضى لنفسه ؛ والمؤمن حسن الخلق ، وأحب الخلق إلى الله عز وجل أحسنهم خلقا ، وينال بحسن خلقه درجة الصائم القائم وهو راقد على فراشه ، لأنه قد رفع لقلبه علم ، فهو يشهد مشاهد القيامة بقلبه ، يعد نفسه ضيفا في بيته ، وروحه عارية في بدنه ، ليس بالمؤمن حقا من لم يكن حملانه على نفسه ، الناس منه في عفاء ، وهو من نفسه في عناء ، رحيم في طاعة الله عز وجل ، بخيل على دينه ، حيي مطواع ، وأول ما ^(١) فات ابن آدم من دينه الحياء ، خاشع القلب لله عز وجل ، متواضع قد برىء من الكبر ، قائم على قدميه ، ينظر إلى الليل والنهار يعلم أنهما في هدم عمره ، لا يركن إلى الدنيا ركون الجاهل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا جرم ^(٢) أنه إذا خلف الدنيا خلف الهموم والأحزان ، ولا حزن على المؤمن بعد الموت ، بل فرحه وسروره مقيم

(١) في ١ : « فات ان » ، وفي ب « فار بني » .

(٢) هكذا في الأصل .

أو صيام ، أو قيام ، أو قعود ، أو ذهاب ، أو مشى ، أو لباس ، أو طعام ،
أو شراب ، أو صاحب ، أو أهل ، أو ولد ، إلا فيما^(١) لا بد منه كالمضطر ،
فإذا فعله على تلك الهيئة ، فعله مع الاهتمام والاعتماد ، أو مع الحزن ، لأنك
تجد ذلك الفعل لله عز وجل خالصا ، لاتأخذ النفس من ذلك الفعل لله^(٢)
حصتها ، فأنت تفعل ذلك الذى لا بد منه ، فتكسر عليها فرحها
ونشاطها لذلك التخليط ، الذى ترى فى أمرك من قبلها ، حتى يدوم
عليها الغم والهم . فجهاد الصديقين فى هذا أن يلقوا^(٣) الفرح بشئ
سواه ، حتى أوصلهم إلى نفسه ، بعد أن امتلأت صدورهم غوما وهوما ،
فلما أوصلهم قربهم ، ومكن لهم بين يديه ، وملاهم فرحا ، فاشتاقوا إليه ،
فقر بهم ، فازدادوا شوقا كلما^(٤) زاد قربهم^(٥) اشتد شوقهم فازدادوا
حتى عطشت قلوبهم ، وامتلأت قلوبهم أحزانا ، حتى قطعوا الحياة والعمر
بالأحزان . وروى فى الخبر ، قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
دائم الأحزان والفكر »^(٥) . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« ما عبد الله عز وجل بمثل طول الحزن »^٦ . وحق لمثل هذا أن يحزن ، فإنه
وصل بقلبه إلى رب ماجد كريم ، فرأى عظمة وجلالة ، وعظفا وبرأ ، ونال

(١) فى ب : « ما » .

(٢) زيادة فى ا :

(٣) فى ا : « تلقوا » ؛ وفى ب « يقوى » .

(٤ - ٤) فى ا : « زادهم قربة » .

(٣) فى ا : « والكدر » .

وروى أن داود عليه السلام قال : يارب ، أمرتني أن أطهر بدني بالصوم والصلاة ، فبم أطهر قلبي ؟ قال : بالهموم والغموم يادود ، فإنما تدنس^(١) القلب بالأفراح ، أفراح النفس ، فلا^(٢) يطهر بمثل^(٣) عمر نوح عليه السلام صوما وصلاة ، وإنما يطهر الصوم والصلاة أدناس الأركان بالمعصية ، وإنما يطهر القلب مايزيل عنه أدناس الفرح ، وهو الهموم والغموم ، فلما منعت النفس شهواتها ذبلت ، وطفئ تلهي شهواتها ، وفوران دخان هواها ، فزالت أدناس الفرح من القلب ، بذهاب الفرح ، وطهر بالأنوار التي ولجت القلب ، بمنزلة سحائب تحجبك بظلمتها ، وبما فيها من الغبرة عن الشمس ، فلما انقشعت السحائب وتبددت ، أشرقت الشمس ، فعندها يصلح لقرب الله عز وجل ، قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة »^(٤) . فالوسيلة والوصيلة بمعنى واحد ، إلا أن الوسيلة أن يوصل الشيء بالشيء ، فلما صار الأمر إلى ذكر الله عز وجل ، أخرجوه مخرج القرية ، فقليل وسيلة ، بدل بالسين صاد ، وبالصاد سينا ، فيكون له من الألفاظ أشرفها وأعلاها وأزهرها ، فأمرهم بابتغاء الوسيلة إليه بالتقوي ؛ فجماع التقوى ههنا^(٥) هو ما وصفنا ، إلى أن يتقى الفرح في كل شيء ، تجدد النفس في ذلك الشيء فرحا : من كلام ،

(١) في ١ : يندنس .

(٢ - ٢) في ١ : « يطهره مثل » .

(٣) سورة ٥ : آية ٣٥ .

(٤) زيادة في ١ .

فإذا أطمأنت النفس بما أشرق فيها من النور^(١) بالله عز وجل ، أشرق النور فيه^(٢) إلى الله عز وجل ، فقد رق عندها نوال الدنيا من أولها إلى آخرها ، في جنب ما عين القلب ، وأورد من حياة على النفس ؛ فهذا شأن النفس إذا وصلت إلى ربها عز وجل بوصول القلب ، فإنما قلنا إنه لا يدع لنفسه قرارا على شيء من أعمال البر ، فكلما فرحت النفس بشيء من الدنيا ، أو بعمل من أعمال البر ، قطع عنها ذلك الفرح حتى يغمها ، حتى يطهر القلب من أفراح النفس ، فهناك يرحم ، لأنه إذا وصل إلى هذه المرتبة ، بقي بلا أنس ولا فرح ، قد قطع عن نفسه أفراح الدين والدنيا ، فهو يحفظ جوارحه عن كل مانهى الله عز وجل ، وعن كل شيء من الفضول ، فيقيم الفرائض والسنن ، لا يزيد عليها ، كفى بهذا شغلا ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أد ما افترض الله عليك ، تكن من أعبد الناس ؛ واجتنب محارم الله عز وجل ، تكن من أروع الناس ؛ وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا » . فهذا المؤمن المستكمل المستحق^(٣) لاسم الإيمان عند إقامة هذه الخصال الثلاث ، فكفى بهذا شغلا ، فهذا عبد صدق الله عز وجل في العبودية . وأما سائر الناس من غير أهل هذه الصفة ، فهم متخبطون^(٤) بطالون ، يعبدون الله عز وجل على الشايد بود^(٥) ، قد طابت أنفسهم ولذات أهوائهم .

(١ - ١) : زيادة في ب .

(٢) زيادة من أ .

(٣) في ب : محبطون .

(٤) بالفارسية ، ومعناه « يمكن أن يكون » .

وإحسانه إليهم ، ومنه ^(١) عليهم ، فامتلا القلب به فرحا ، وجرت
الأفراح في العروق ، حتى امتلأت فمتى تجد بعد ذلك أفراح الدنيا مسلكا
إلى عروقه ، حتى يكون لذلك الفرح سلطان يأخذ القلب فيسيبه ،
فغندما يمد يده إلى ما أحل له من الطعام والشراب واللباس والنكاح ،
والاحتواء إلى ما قدر له من دنياه ، فيقبله من ربه عز وجل على تديره الذي
دبر له ، فإن أخذ أخذ بحق ، وإن أمسك أمسك بحق ، وإن أعطى أعطى
بحق ، وقلبه حر من رق النفس وفتنته ، ذلك الشيء ^(٢) وذلك العمل
بمنزلة رجل له ملء بيت دنانير يملكها ، وإن أعطاه رجل صرة فيها
عشرة دنانير ، لم يعمل في قلبه فرح تلك العطية عملا يؤثر أثرا ، ولا
يستبين ، وإن كان عنده تلك الصرة ، فسقطت منه حتى تويت ،
لم يبد عليه ضرر ذلك ، ولا عمل على قلبه حزن ذلك ، ولا هو فرح
بما أصاب ، ولا حزن على ما توى وذهب ، لامتلاء قلبه بفرح تلك
الدنانير ، التي هي ملء بيت ؛ فكذلك من فرح قلبه بالله عز وجل ،
استغنى بالله عز وجل ، فلا تملك قلبه بعد ذلك أفراح الدنيا ، لأنه لا
يستغنى بالدنيا ، إنما غناه بالله تعالى ؛ وهذا تأويل قول رسول الله صلى
الله عليه وسلم : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، إنما الغنى غنى النفس » .
فالنفس إذا استغنت ، فغناها بغنى القلب المشرق نوره في صدره ،

(١) في ١ : ومنه .

(٢) في ١ : السوء .

والسائرين بالصدق إليه ، والطالبيين له في منازل القرية .

فينبغي أن ينبغي كل فرح للنفس فيه نصيب ، حتى يصل إلى ربه تعالى ، فإذا وصل إلى ربه عز وجل امتلأ قلبه به فرحاً وسروراً و يقيناً ، فكل شيء مد إليه يدا من دنيا أو آخرة لم يضره ، لأنه منه يقبل ، فإذا قبل منه حمده عليه وشكره ، وكانت جوارحه مستقيمة ، حافظة للحدود ، معتصمة بخوف الله عز وجل ، ولسانه ذاكر ، وبدنه شاكر صابر ، لأنه امتلأ قلبه بالله تعالى فرحاً ، فلم تجد أفراح الدنيا فيه مكاناً ، فإذا فرح بشيء من الدنيا ، فإنما يفرح ببر الله تعالى له بذلك وتقديره وتديره ولطفه ، ولا يخون أمانته ، ولا يكفر نعمه ، ولا ينسى ذكره ، ولا يحدث عيباً ، فاستعمال جوارحه في ذلك الشيء بمنزلة رجل شرب ترياقاً ، فامتلات عروقه منه ، فإن مد يده إلى حية أو عقرب لم يضره سمهما ، لأنه لم يجد السم مسلماً إلى عروقه ، فإذا لم يجد الترياق وجد السم مسلماً إلى العروق ، فحمد الدم الذي في العروق من ذلك السم فمات ؛ فكذلك أفراح الدنيا تجري في العروق مجرى الدم ، فتشمل الجوارح كلها ، فتأخذ القلب فتسببه ، فإذا دخلت الأنوار القلب بما راض نفسه بهذه الرياضة التي ذكرنا ؛ عجل له ثواب رياضته ، فانشرح الصدر وانفسح ، فصارت الآخرة له كالعاينة ، ولا حظ للملكوت بتلك العين الفؤاد ، في فسحة ذلك النور المشرق في الصدر ، فرأى شأنًا عجيباً من عظمة الله عز وجل وجلاله ، ورأى من لطف الله عز وجل بالعبيد ، وبره بهم ،

يقطعها عن نفسه ، ومجالسة الإخوان ، والنظر في الكتب ، ^(١) فهذا كله .
أفراح النفس وجماعها ^(٢) .

وفي الجملة ينبغي أن يتفقد كل حال وكل أمر للنفس فيه فرح واستبشار ، من نعمة أو وجود لذة أو أنس بشيء ، فيقطع عنها ، وأنه كلما هويت النفس شيئاً أعطاه فرحت به ، فينبغي له أن يمنعها ولو شربة من ماء بارد تريد أن تشربها ، فيمنعها في تلك الفورة التي تشوفت لوجود بردها ولذتها ، حتى تسكن تلك الفورة ، وينغص عليها ، ثم يسقيها بعد ذلك حتى يملأها غماً ، ويوقرهاها ، لأن من شأنها إذا حبس عنها هذه الأفراح بهذه الأشياء وبهذه الأحوال ، فكأنه يصيرها في سجن ، فيتقرب إلى الله عز وجل بغمها وهمها ، فيعجل الله عز وجل له ثوابه نورا على القلب ، فيزداد القلب بذلك النور قوة على منع النفس شهواتها ، وعلى أخذ سلطانها ؛ ويستولى عليها وهي تذلل وتذبل ، والعدو يخسأ ويتحير ، ويبطل كيده ومكره ؛ حتى إذا انتهى إلى أعمال البر ، فكل عمل يراها تفرح به أو تأنس به ، يقطع عنها ذلك العمل ، حتى إنه لو قرأ القرآن فرجع فيه وغنى ، منعها ذلك ، لأنها متى وجدت شيئاً مفروحا به ، أنست واطمأنت إليه ، ومدت القلب إلى ذلك الأنس ، فمتى يصل القلب إلى الأنس بالله عز وجل ، والطمأنينة إليه ، والوله إلى عظمته ، وصفاء الحب له ، فهذا صدق المريدين ربهم عز وجل ،

(١ - ١) في ١ : فهذه كلها .

(٢) في ١ و ٢ : وجماعتها .

وجل ، فقد ترك سيره إليه ، ووقف على ذلك العمل ، فاقضى منه صدق ذلك العمل ، فلم يوجد عنده صدقه ، لأن النفس تأخذ بحظها من ذلك العمل ، وهو أن تجد حلاوة حب الثناء والمدحة لذلك العمل ، فهو وإن أخفاه وستره علمت نفسه أن الناس يحسون^(١) بذلك منه ، ويشعرون به ، فيأنس بعلم الناس ، وملاحظة أعينهم إليه ، فلا يصفوله عمل ، ولا يقدر أن يخلص بأكثر من هذا ، فيقبل منه إذا رد الذي عرض له من ذلك قبول الصادقين ، لا قبول الصديقين .

فينبغي للمبتدئ في هذا الأمر أن يبدأ بالصوم ، فيصوم شهرين متتابعين ، توبة من الله عز وجل ، وعهد الله عز وجل في تنزيله أن شهرين توبة من الله عز وجل لعبده إذا تابعهما ، ثم ينتقل من الصوم إلى الإفطار ، فيطعم اليسير من الشيء يتجزأ به ، فإن كان في اليوم مرارا كسرة كسرة ، فهو أجود له من أن يملأ بطنه ، فيصيرها أكلة ، وإنما ذلك محمود عند الأطباء ، فتقول أكلة واحدة كي يستمر بها ، وذلك لا يدخل في هذا الباب ، لأن صاحب هذا لا يأكل حتى يتخم ، إنما نشير عليه بأن يأكل كسرة كسرة قوتا ، فيدارى نفسه على ذلك وبين الأيام دسما قليلا ، لئلا تهيج عليه الرياح ، وتضطرب العروق ، ويقطع الإدام والفواكه عن نفسه . وكذلك في الكسوة ، يجتريء بالدون وما لا بد منه . وكذلك في سائر الأحوال التي للنفس فيها حظ من الفرح واللذة

(١) في ١: يخينون .

في كل جارحة على هذه الصفة . فالراعى يحفظ هذه الأغنام حتى يصلح ما فسد منها ، على ما وصفنا ، فكذلك ^(١) الذي وقف بمجاهدته على نفسه ، يحفظ جوارحه على الحدود ، في النظر ، والكلام ، والاستماع ، والأخذ ، والعطاء ، والبطن ، والفرج ؛ فإذا غلب أو زل أو نسى أو غفل ، عاد إلى مركز الطاعة بين يدي الله عز وجل بالاستغفار والتوبة ؛ فهذا عبد في جهد الاستقامة ، وباطنه غير مستقيم ، لأن شهوات نفسه قائمة بين يديه ، فهو يمنعها بجهد ، ومتى ما غفل عنها زل وسقط ؛ فطريق هذا العبد إلى دار السلام ، ليس له وراء هذا مسلك . وأما الذي راض نفسه وأدبها ، ومنعها اللذات والشهوات ، حتى طهر قلبه ، واستوجب القرية بطهارة قلبه ، وآثر الفرح بالله على الفرح بما أورده الهوى على نفسه من أفراح الدنيا ، فتح الله عز وجل له طريقا إليه ، فسار سيرا لم يلتفت إلى دار السلام ، لأنه لما أخذ في الرياضة أخذه بصدق ، فلم يقف في الطريق على شيء مفروح به ، ولو كان أسنى عمل من الأعمال ^(٢) ، لأنه إذا توقى الفرح بلذات الدنيا وشهواتها ، أمد القلب بالنور ، وهان عليه رفض الشهوات ، حتى إذا انكشف في أعمال البر ، فرح القلب بتلك الأعمال ، فينبغي له أن يتوقى تلك الأفراح أيضا ، وينتقل من عمل إلى عمل ، ليقتطع عن النفس فرحها بذلك العمل ، لأنها إذا فرحت بعمل من أعمال البر ، اطمأنت إلى ذلك العمل ، فإذا اطمأنت ^(٣) إلى شيء دون الله عز

(١) في ب : فذلك .

(٢) في ا : من أعمال البر .

(٣) في ا : اطمأن .

عند استعماله ، وهو أقوى اللذات ، وبه دخل النار أهله ؛ وقيل : يارسول الله ، ما يدخل الناس النار؟ قال : الأحيوفان : البطن والفرج ، وإنما خبأه عند عبده ، يعني آدم عليه السلام ، لأنه ^(١) بدء الفرج ^(٢) ، وهو سر الله عز وجل ، مقرون بسر القدر ، لا ينكشف إلا لأهل الجنة فيها ، فأمر بسر العودة لذلك ، لأنه خلق مستور ، خبأه الله عز وجل عندنا ، وأمرنا بحفظه ، وسماه سوءة ، فحرص العدو على أن يهتك ذلك السر ، حتى يبدو لنا ، وقبل ذلك كان مستورا عن آدم وحواء عليهما السلام ، وإنما بدا بالمصيبة ، قال الله عز وجل : « ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما » ^(٣) .

فإنما صير كل جارحة من هذه السبع أمانة عندنا ، لأن كل جارحة ذات شهوة ، وجمع الشهوات في النفس ، فإذا استعمل هذه الشهوات يأذن الله تعالى ، وبلغ بها الحد الذي حده له ، فهو مطلق له ؛ وإذا تعدى إلى المحذور صار ملوما ، قال الله عز وجل : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم » ^(٤) . ثم أثنى عليهم فقال : « والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، فإنهم غير ملومين » ^(٥) . فأزال اللامة عن استعماله في نكاح أو ملك يمين ؛ ثم قال عز وجل : « فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » ^(٥) . فذم من جاوز الحد ، وكذلك

(١ - ١) في ١ : به والفرج .

(٢) سورة ٧ آية ٢٧

(٣) سورة ٢٤ آية ٣٠

(٤) سورة ٢٣ آية ٥

(٥) سورة ٢٣ آية ٧

فهو قائم على أكمة مراقبا لتلك الأغنام ، فإن رعت ^(١) سما بادرها بالبازهر
والسمن واللبن ، حتى يردّها إلى العافية ؛ وإن تردت في جرف فتكسرت ،
عمد إلى ما تكسر منها ، فجبرها حتى تجبر ؛ وإن عرضت لها السباع ذاد
عنها وطردها ، وما وجدها فريسة استلبها من مخالبتها وأنيابها ، فداواها
حتى تبرأ ؛ فوكل العبد بجوارحه السبع ليحفظها ، ^(٢) « حتى لا تتعدى »
الحدود ، فإنه إذا تعدى الحدود ، وعصى الله عز وجل ، وخان الأمانة ،
وظلم نفسه ، وسقطت منزلته ، فبعد عن الله عز وجل ، فإذا بعد عنه تباعد
عن الرحمة ، وصار مرفوضا مخذولا ، فأسرّه العدو ، وذهب به إلى النار ،
لأنه إذا أسره العدو ذهبت قوة القلب ، واستولت النفس ، فمرت في كل
شهوة جزافا ، فلم تبال حلالا ولا حراما ، فهلكت . فهذا شأن العبد في
حفظ الجوارح ، قال الله تعالى : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » ،
ثم قال الله عز وجل : « أولئك في جنات مكرمون ^(٣) » .

حدثنا صالح بن عبد الله ، حدثنا جرير ، عن ليث ، عن ابن أبي نجيح ،
عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه ، قال : أول ما خلق الله من الإنسان
فرجه ، فقال له : هذه أمانة خبأتها عندك ، فلا ترسل منها شيئا إلا بحقها ،
فالفرج أمانة ، والبصر أمانة ، والسمع أمانة واللسان أمانة ، واليد أمانة ،
والرجل أمانة ، والبطن أمانة ، فإنما بدأ بالفرج ، لأن جميع الأفراح تجتمع

(١) في ١ : رعت .

(٢) في ١ : من أن يتعدى .

(٣) سورة ٧٠ آية ٣٥

فتلك الأفراح بالقلب ، وهذه الأفراح التي بياب النار في النفس ،^(١) هو الهوى ، وهو ربح من نفس النار^(٢) ؛ والذي يورد هذه الأفراح على القلب ، هو نور المعرفة ونور العقل ، حتى يشخصا يبصر قلبك إلى نور العظمة ، فيرجع عليك مع الأفراح ؛ فالعباد موقوفون بين هاتين الحالتين ، فالإنسان منذ سقط من بطن أمه غدى بالشهوات ، وكلما نشأ معه فرح ، وذلك فرح وجود اللذة والنعمة ، وفرح الحياة بما فيها من الزينة والبهجة ؛ فلما شب وعقل قامت عليه الحجة ، فاقضى الوفاء بالإسلام ، وهو الأمر والنهى ، فأراد قلبا ، فاستعصت عليه النفس ، فاحتاج إلى مجاهدتها ، حتى يقيم أمر الله عز وجل ، ويفي بالإسلام الذي قبله ، وسيسعد^(٣) غدا بجمته وجواره ، لأنه دعاه دعوة إلى الله عز وجل حين قال تعالى : « ففروا إلى الله » ، ودعاه إلى دار السلام حين قال : « والله يدعو إلى دار السلام » ، فصار أهل المجاهدة فرقتين : فرقة حفظت الجوارح ، وأدت القرائض ، وسارت إلى الله عز وجل قلبا ، فلم تعرج^(٤) على شيء حتى وصلت إلى الله عز وجل ، وفرقة حفظت الجوارح ، وأدت القرائض بجهد وتعب ،^(٥) في كد ، محافظة وحراسة ، ومع ذلك تخليط وتهافت في الخطايا ، وأدناس لا يستطيع أن يسلم منها ، بمنزلة راع أعطى سبعة أغنام ، ليرعاه في سبعة أودية ، في تلك الأودية سموم قاتلة ، وجرف هارية ، وسباع ضارية ،

(١ - ١) زيادة في ب .

(٢) في ١ : وسعدا . وفي ب : وسعد .

(٣) في ١ : تفرج .

(٤ - ٤) في ١ : وكل .

الله صلى الله عليه وسلم : « ما تحت أديم السماء إله يعبد من دون الله عز وجل ، أبغض إلى الله عز وجل من الهوى . » وقال عز وجل : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ^(١) » . فلما اتبعوا الشهوات ، ولم يروضوا نفوسهم ، انقطعت القلوب عن محل الألوهية إلى الهوى ، ففرحت بما أورد الهوى عليها من دنياه ، فضاعت الحدود ، وذهبت العبودية ، وخانوا الأمانة ، فماتت قلوبهم عن الحياة بالحى القيوم . وروى عن مالك بن دينار رحمه الله قال : مكتوب فى بعض الكتب : « إن شرك أن تحيا وتبلغ علم اليقين ، فاحتل فى كل حين أن تغلب شهوات الدنيا ، فإنه من يغلب شهوات الدنيا يفرق الشيطان من ظله » . فهذه شهوات الدنيا إذا كانت مع الهوى . فأما إذا تناولها وكان وله قلبه بين يدى الله تعالى فى ملك العظمة ، كان على سبيل نبى الله تعالى سليمان عليه السلام ، ملك الدنيا شرقها وغربها وقلبه أخشع القلوب لله عز وجل ، فلم يضره ، فقال تعالى : « هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ^(٢) » . ثم قال تعالى : « وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ^(٣) » فإنما ارتفع الحساب عنه ، لأنه تناولها وكان وله قلبه إلى الله عز وجل ، فقد كشفنا عن هذا الأمر بأن قلنا : إن قلب العبد موقوف بين يدى الوله إلى محل العظمة ، وبين الوله إلى الهوى ، إلى محل باب النار ؛ فى العظمة أفراح وزينة ، وبياب النار أفراح وزينة ،

(١) سورة ٤٥ آية ٢٣

(٢) سورة ٣٨ آية ٣٩

(٣) سورة ٣٨ آية ٤٠

الهوى ، فيزيله الهوى عن ذلك الوله الذى فى ذلك المحل ، فيرده من هناك إلى ما هاهنا ، فمن التفت عن ذلك الوله إلى هذا الوله ، حجب عن الله عز وجل ، ونفى عن الوله ، ورجع قلبه لما رجعت النفس إلى هذا الوله الذى أوله الهوى ، خاب وخسر ، وكذلك^(١) حذر الله عز وجل عباده فقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله^(٢) » ؛ ثم قال : « ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون^(٣) » . فلم يعب المال والولد ، وإنما عاب الوله بالمال والولد ، لأن الفرح والوله بالمال والولد يلهيه عن ذكر الله عز وجل ، إذا لم يكن فيه فرح بفضل الله ورحمته ؛ ودعاه الهوى إلى أن يفرح بالمال ، لزيينة الدنيا وبهجتها ولذتها ، وبالفرح بالولد ، ليلعب به ويلهو ، ويتزين به ، ويستظهر به ويعتضد ، فصار المال والولد فتنة لحبه إياهما ، فلم يحب المال من أجل أنه عون له على طاعة الله عز وجل ، ولم يحب الولد من أجل أنه غصن من شجرته ، خرج ليعبد مولاه ، فيكون له جاها عند الله عز وجل بما يعبد ولده ، ولكنه أحبهما للتكاثر والتفاخر والتعاضد ، تزينا بهما عند أهل الدنيا ، كما قال الله عز وجل في تنزيله : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا^(٤) » . ثم قال عز وجل : « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا^(٥) » . فمن أحبهما للزينة وفرح بهما ، كان فرحه للدنيا ، وكان وله قلبه إلى الهوى لا إلى الله عز وجل ، ولذلك قال رسول

(١) فى ١ : ولذلك .

(٢) سورة ٦٣ آية ٩

(٣) سورة ١٨ آية ٤٦

فمن صان قلبه عما تورد النفس عليه ، بقى قلبه مع الله عز وجل في جميع الأحوال ، فهو أبداً واله بالله عز وجل ، والوله تعلق القلب به ، ومن لم يصن قلبه حتى أوردت النفس عليه ^(١) أفراحها التي أورد عليها الهوى من باب النار ، فقد صار وله قلبه إلى الهوى ، فالصائن أوله قلبه الله بأفراحه وحبه ، والتارك للصيانة أوله قلبه الهوى بأفراحه إلى باب النار ، ولجت تلك الزينة . فالكيس لما أبصر هذا التدبير من الله تعالى أنه خلق آدمي هكذا ، وجعل فيه قلباً ونفساً ، ثم جعل للقلوب ^(٢) محلاً في عظمتها ، حتى تسير القلوب إلى ذلك الحل ، فيكون مقامها هناك حتى إذا صار القلب إلى أن يستعمل جوارحه استعمالها بذكره ، معظماً لشأنه ، حافظاً لحدوده في جميع حركات جوارحه ، مؤتمراً بأمره ، متناهيًا عن نهيه وإن دق ، مراعيًا لتدبيره ، راضياً بحكمه ، وذلك كله لقوة ما يلاحظه من عظمتها وجلاله بين يديه ، فيخشاه ويتقيه ، ويخافه ويرجوه ، ويستحي منه ويهابه ويعظمه ، وخلق بباب النار هذه الأفراح والزينة من النار ، وحفت النار بها ، ثم خلق الهوى وأصله من الشيطان ، فمر بهذه الأفراح إلى نفس هذا آدمي ، حتى تستعمل هذه الأشياء الملازمة لها ، اللينة في ذاتها ، الناعمة ^(٣) لجسدها ، بذلك الفرح ^(٤) ، فابتلى عباده بهذين الفرحين ، فرح هناك بين يدي عظمتها ومحله القلوب ، وفرح هاهنا يورده

(١ - ١) : زيادة من ب .

(٢) في ١ : « للقلب » .

(٣ - ٣) : زيادة من ب .

بذكر الله عز وجل حين يرى منته عليه ، وإنما يفرح بالله عز وجل من وصل إلى الله عز وجل ، ومن كان مرعاه بين يديه في ملك من ملكه ؛ والواصلون إلى قرب الله عز وجل مرعاهم تحت العرش في محل القربة .
فالأكياس صاروا إلى الله عز وجل في هذا الطريق ، وتوقوا كل فرح ، فما ^(١) فرحوا بشيء من الدنيا ، أو بشيء من أعمال البر ، و ^(٢) قالوا : إنما فساد قلوبنا من فرح النفس ، لأن النفس إذا فرحت بشيء استولت على القلب ، فلم ينفذ له شيء ، فليس بنا التمييز بين الأعمال ، لأننا لا نسير إلى الله تعالى بالأعمال ، إنما نسير إليه بالقلوب نزاهة وطهارة ، فإنما يندس القلب بأفراح النفس ؛ وصار القلب محجوبا عن الله عز وجل ، فكانوا يصونون قلوبهم عن الفرح بكل شيء ^(٣) أو جل ، للضرر الذي يحدث عنه . ومن جهل هذا الباب توقى الحرام والشبهة ، وانكش في أعمال البر ، فهو في الظاهر عامر ، وفي الباطن خراب ^(٤) ؛ لأن النفس شاركت ^(٥) القلب في تدبير العمل ، فإذا شاركت أخذت نصيبها ، والهوى مقرون بالنفس ، فلا يتخلص ^(٦) العمل لصاحبه أبدا ؛ وإنما صار هذا هكذا ، لأن الله عز وجل أوله قلوب العباد إلى ألوهيته ،

(١) في ١ : فسواء .

(٢) زيادة في ب .

(٣) في ١ : « رق » .

(٤) في ١ : خرب

(٥) في ١ : يشارك

(٦) في ١ : يتخلص

والحسد والحقد ، وطلب العلو ، وطلب العز والجاه ، وحب الرياسة ، وحب الثناء والمدحة ، والكبر والفخر ، والصلف والغضب ، والحمية وسوء الظن ، والبخل والمن والأذى ، والعجب والافتكال على العمل ، ودواء كبيرة ، فكم من فعل سيئ يظهر على أركان هذا مع هذه الدواهي ، ففساد القلب وخراب الصدر من الفرح بالدنيا ، وأحوال النفس كلما ازدادت النفس فرحا بهذه الأشياء قويت واحتدت ، واشتد سلطانها ، حتى تصير شرهة أشرة ، بطرة مستبدة ، فإذا هويت شيئا من الشهوات لم يملك القلب من أمرها شيئا ، ولم يتورع عن الحرام ، وإن تورع عن الحرام لم يتنزه عن الفضول ، وإن تنزه عن الفضول ، يتناول ما احتاج إليه على غفلة ، وفقد النية والحسبة ، فإن تناول بنية وحسبة تناول على فقد ذكر المنة ، وإن تناول على ذكر المنة ، تناول على فقد رؤية المنة واللطف والبر ، فهو أبدا في نقصان ، في أي درجة كان ، لأنه محبوب عن الله عز وجل ، وإنما حجه عن الله عز وجل الفرح بغير الله عز وجل . فالفرح الم محمود على ضربين : فرح بالله عز وجل ، وفرح بفضل الله ورحمته ؛ فالفرح بفضل الله ورحمته ذكر النفس معه ، والفرح بالله قد غاب ذكر النفس معه ، والفرح بالله قد غاب ذكر النفس ^(١) في ذكر مولاه ، يقال عز وجل في تنزيله : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا » ^(٢) ، وقال تعالى فيما روى : « قل للصديقين بي فافرحوا ، وبذكرى فتنعموا » . وإنما يفرح

(١) في ١ : نفسه .

(٢) سورة ١٠ آية ٥٨

الإفناق ، ونومه عن الاستغفار بالأسحار . فالرائضون راضوا أنفسهم وأدبوا ، بمنعها الشهوات التي أطلقت لهم ، فلم يمكنوها من تلك الشهوات إلا ما لا بد منه ، كهيئة المضطر ، حتى ذبلت النفس ، وطفئت حرارة تلك الشهوات ، ثم زادوها منعاً حتى ذبلت واسترخت ، فكلما منعوها شهوة آتاهم الله على منعها نورا في القلب ، فقوى القلب ، وضعفت النفس ، وحيى القلب بالله جل ثناؤه ، وماتت النفس عن الشهوات ، حتى امتلأ القلب من الأنوار ، وخلت النفس من الشهوات ، فأشرق الصدر بتلك الأنوار ، فجلب على النفس خوفاً وخشية وحياء ، واستولى على النفس وقهرها ، فالولايات على النفوس من القلوب بالإمرة التي أعطيت القلوب ، بما فيها من المعرفة ؛ فعلى حسب تأديب القلب النفس ينال القلب ولاية وسلطاناً ، فإذا أشرقت الأنوار من القلب في الصدر ، وخلا الصدر ^(١) من دخان الشهوات ، أبرز القلب سلطانه ، فانقادت النفس وسلسلت ، وألقت بيدها سائماً ، وانكمن العدو واختشى . فمن لم يرض نفسه على ما وصفنا ، وأعطاه منها من الحلال ، وانكش في أعمال البر مستظهِراً به ، عجل له ثواب أعمال البر في العاجل نورا ، ففي الصدر ذلك النور ، وليس له من القوة ما يمنع النفس من قضاء النهمة ، فيمضي في الشهوات الحلال بلا نية ، فيتعطل ، ويبقى بلا حسنة ولا أجر ، ومعه فساد الباطن ، من حب الدنيا ، والرغبة والرغبة من المخلوقين ، وخوف فوت الرزق ، وخوف المخلوقين ،

(١) في ب : القلب .

وذلك الفرح سم ، فمن شرب الترياق لم يضره السم ، وإنما صار سما لأنها زينة وفرح من جنس النار وباب النار ، وهو حظ إبليس ، فجاء به الهوى مع العدو إلى هذا الآدمي بهذه الأشياء الدنيوية ليتليه ، ليفرح بهذا أو يستعمله معرضا لاهيا ، أو يقبل على ربه عز وجل وداره التي مهدت له ، فقد قال عز وجل في تنزيله : « زين للناس حب الشهوات ^(١) » ، ثم ذكر النساء ، والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخليل المسومة ، والأنعام ، والحراث ؛ ثم قال تعالى : « ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب ^(١) » . فإذا فرح العبد بهذا المزين ، الذي قد خلص حب تلك الزينة وشهوتها إلى قلبه ، وسماه الفرح ، فاته حسن المآب ، فقد وصف الله عز وجل حسن المآب ، فقال : « قل أؤمنواكم بخير من ذلكم ^(٢) » ، ثم بين لمن هي ، فقال : « للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار ^(٢) » . فوصفها بما فيها ، ثم بين المتقين من هم ، فقال عز وجل : « الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ^(٣) » . وقال عز وجل : « لا تلهيكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ^(٤) » . فمن شغله الفرح بهذه الزينة ، وملك قلبه حب هذه الشهوات ، فقد ألهاه عن ذكر الله عز وجل ، وفاته التقوى والصبر والصدق والقنوت ، وحجزه عن

(١) سورة ٣ آية ١٤

(٢) سورة ٣ آية ١٥

(٣) سورة ٣ آية ١٧

(٤) سورة ٦٣ آية ٩

والأكياس بحثوا عن أصل هذه الأمور ، ووجدوه على ما ذكرنا ،
فخلصوا إلى الرياضة ، فقالوا : إننا لما وجدنا النفس تأشرو وتبطر ، وتستمر على
الفرح ، حتى تصير بحال من امتلائها بالفرح بالأشياء ، كالسكران الذي لا
يفيق من سكره ، فكل شيء نالت من الدنيا من حال أو عرض أو حال^(١) ،
مطلق لها أو غير مطلق فرحت ، فذلك الفرح سم يجري في العروق حتى
يشتمل على الجسد ، ويمتلئ القلب من حلاوة ذلك الفرح ، ويصير
أشرا بطرا ، لا يذكر موتا ولا قيامة ولا حسابا ، ولا شيئا من أهوال
القيامة ، فذلك فرح يمت القلب ، وتستمر النفس عليه وتطيب ، وتقوى
الشهوة وتحتد ، فهذا فرح مذموم ، ذمه الله عز وجل في تنزيله ، فقال :
« وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع » .^(٢) وقال
تعالى : « لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين »^(٣) . ودل على الفرح المحمود ،
ونذب إليه فقال عز وجل : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ،
هو خير مما يجمعون »^(٤) . فإذا فرح العبد بما فضله الله عز وجل على سائر
العبيد ، فمن عليه بالمعرفة والعقل ، فاستنار قلبه ، وطابت نفسه ، فتعاونوا على
الشكر والحمد ، فاستوجب المزيد ، فقال عز وجل : « لنن شكرتم
لأزيدنكم »^(٥) ، ففرحه بذلك يجلب عليه المزيد ، فهذا الفرح ترياق ،

(١) في ١ : « بال » .

(٢) سورة ١٣ آية ٢٦

(٣) سورة ٢٨ آية ٧٦

(٤) سورة ١٠ آية ٥٨

(٥) سورة ١٤ آية ٧

يقول لامرأة أخيه وهي في الدار معه : استترى مني ، وكان ذلك دأبه زمانا ، ثم ترك ذلك ورمى بالقطن ، ورفع بصره إلى الناس ، وقال لامرأة أخيه : كوني كيف شئت ، فذلك منه حيث وجد شهوته ميتة . وروى عن عامر بن عبد قيس رحمه الله تعالى أنه قال : ما أبالي امرأة لقيت أو حائطا . وروى عن بعض التابعين أنه قال : ألزمت نفسي الصمت بحصة جعلتها في في ، وكان إذا أكل أخرجها ، وإذا فرغ وضعها في فيه ؛ وكذلك إذا صلى ، فبقي في ذلك أربعين سنة ، حتى ألزمت نفسه الصمت ، فرمى بها . وروى لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مر برجل يعبد في صلاته بلحيته ، فقال : لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه ؛ وإني خشع القلب بما يتجلى له من عظمة الله عز وجل وجلاله ، ويهيج من النفس الخوف والخشية والحياء منه ، فيوجل القلب ، فإذا خافت النفس وخشيت ، فوجل القلب واستحيا ، سكنت الجوارح ، وملك القلب جوارحه ، ووقف بها على الحدود . فإذا ترك الرياضة أحاطت بالقلب فورات الشهوات ، وحلاوتها وزينتها كالدهان والغميم ، فلم يستن إشراف الأنوار ، وانكمت الأنوار بما فيها من السرور والبهجة والزينة والحلاوة واللذة ، فلم يتجل في الصدر نور العظمة والسلطان ، وافتقد صاحبه الخوف والخشية والحياء أن يعملوا^(١) على القلب والنفس ، فأصاب النفس نهبتها بما زين لها العدو ، ومنها الغرور والأمانى السكاذبة ، يعدها سعة المغفرة ، ووفارة الرحمة ، وفيض الغفو والتجاوز ، ويحدث نفسه بالتوبة ، ليتجرا على الذنب .

(١) هكذا في ب . وفي أ : « يعملها » .

ذكر ما يعرض لها ، ولم يقدر على تسكينها ، بل هي تغلب ^(١) القلب بما فيها من سلطان الفرح والزينة والشهوة ، فيصير القلب أسيرا للنفس ، بعد أن كان أميرا على النفس ؛ لأن إمارة القلب بالمعرفة ، وبما أعطى من هذه الأنوار التي وصفنا ، من نور العقل ، ونور الحفظ ، ونور الفهم ، ونور العلم ، ونور السكينة ، فأجمل للعبد في الأمر ، فقليل له جاهد في الله عز وجل حق جهاده ، فمن لم يرض نفسه قبل ذلك ^(٢) ، فإذا جاهد ^(٣) فربما غلب وربما غلب ، فلذلك يوجد العبد مرة طائعا ومرة عاصيا في شهوة واحدة ؛ فأما الأكياس فراضوا أنفسهم ، فأدبوها ، فامتنعوا من الحلال المطلق لهم ، حتى هدأت جوارحهم ، وإنما هدأت وسكنت لسكون غليان شهوة النفس ، فإذا استعملوها كان القلب أميرا قاهرا ، فاستعمل تلك الشهوة بما يريه العقل ، ويزين له ، ويحد له ، فيؤدبه بأدب الله عز وجل الذي أدبه ، فهناك يملك نفسه أن تقف على الحلال فلا تتجاوز ، فهو ينطق ، فإذا بلغ في منطق مكانا يصير ذلك الكلام عليه غيبة أو كذبا ، ملك نفسه ، فامتنع وتورع ، لأن شهوة الكلام قد ماتت منه ، فهو يتكلم لله عز وجل وابتغاء مرضاته ، وكذلك النظر ؛ إذا كان قد راض نفسه حتى ماتت منه شهوة النظر ، ملك نفسه عند الحرام ؛ وملك السمع ، وسائر الجوارح السبع . روى أن سهل بن علي المروزي رحمه الله تعالى ، كان إذا مشى في السوق حشا أذنيه بالقطن ، ورمى ببصره إلى الأرض ، وكان

(١) في « تغلب » .

(٢-٣) في « جاهد » .

بعضها حلال ، وبعضها حرام ؛ فالاستماع إلى الأصوات بعضه حلال ،
وبعضه حرام ؛ والنظر إلى الأشياء بعضه حلال ، وبعضه حرام ؛ والأخذ
والإعطاء بعضه حلال ، وبعضه حرام ؛ وكذلك المشي ، والبطن والفرج
كذلك ، وإنما هي شهوة واحدة لكل جارحة ، أحل للعبد إمضاء تلك
الشهوة ، وقضاء تلك التهمة ، بصفة وهيئة ؛ وحرّم عليه بصفة أخرى
وهيئة ، كالمرأة يطؤها بالنكاح فتحل ، ويطؤها بغير نكاح فتحرم عليه ؛
وكذلك كل شيء خرج من هذه الجوارح من الحركات ، وقد أخذ عليه
يوم الميثاق ألا يعمل جارحة إلا بما أطلق له في التنزيل ، وعلى السنة
الرسول ، وقبل العبد ذلك يومئذ ، فأوثقه بما ضمن ، فاقتضاه الوفاء ، ولذلك
سمى بالعجمية « بنده » لأنه أوثق بما قبل من الطاعة في الأمر والنهي ،
فإذا ^(١) وفي له بتلك ^(١) البندكية ، وفي له بالعهد ، وهي الجنة ، فقام
العبد بمجاهدة النفس عند ما يعرض ذكر شهوة محرمة عليه ، فعلى العبد
أن يجاهدها بقلبه ، بما فيه من المعرفة ، وتعلقه ^(٢) بالمواعظ التي وعظه الله
عز وجل ، من الوعد والوعيد ، وذكر الموت والحساب والقبر والقيامة ، حتى
يزجر النفس والعدو ، فإذا كان العبد لم يرض نفسه قبل ذلك ولم يؤدبها ،
ولم يعودها رفض ما ذكرنا بدءا ، من رفض هذه الشهوة المطلقة له حتى
تذل وتسكن ، ويلزمها خوف الله عز وجل وخشيته ، لم يملك نفسه عند

(١ — ١) في ١ : « وفاه تلك » .

(٢) في ١ « ويعقله » .

فإذا جاهد العبد ، فمن جهاده أن يروض نفسه فيؤديها .
وأدب النفس أن يمنعها الحلال ، حتى لاتطعم في الحرام ، وذلك أن
النفس قد اعتادت لذة التكلم بالكلام ، فإذا لم يلزمها الصمت فيما لا بد منه ،
حتى تعتاد السكوت عن الكلام فيما لا بد منه ، فقد ماتت شهوة
الكلام ، فاستراح وقوى على الصديق ، فلا يتكلم إلا بحق ، فصار سكوته
عبادة ، وكلامه عبادة ، لأنه إن نطق بنطق بحق ، وإن سكت سكت بحق ،
لأنه سكت مخافة الوبال . وكذلك شهوة النظر ، فاعتادت النفس لذة رمي
البصر حيثما وقع ، من غير مبالاة ، فإذا لم يلزمها الخفض عما لا بد منه ، وهو
أن يكون خاشع الطرف ، خافض النظر ، اعتادت نفسه رمي البصر ، لتدرك
الأشياء ، فإذا أرى الحرام لم يملك بصره ، لأن شهوة النظر قد أخذت بعينه
فملكته ، فإذا أزم عينه الغض عن النظر ، ورمى بها إلى الأرض إذا مشى
وقام وقعد ، ماتت شهوة النظر إلى الأشياء ، واعتادت غض البصر وحفظه ،
فإذا نظر نظر بحق ، وإذا غض غض بحق ، وصار نظره عبادة ، وغضه
عبادة . وكذلك شهوة السمع واليدين والرجلين والبطن والفرج . فالمجاهدة
ها هنا إذا عزم العبد على مجاهدة النفس ، أزم كل جارحة من هذه الجوارح
السبع القطام عن عملها حلالا كان أو حراما ، حتى تموت تلك الشهوة ، لأن
تلك الشهوة هي شهوة واحدة ، أحل له بعضها ، وحرم عليه بعضها ، بلوى
من الله تعالى لعباده ، وتديرا لهم ، فما علم أنه يصلح لهم ويصلحون
عليه أطلقه لهم ؛ وما علم أنه يفسدهم وأنهم يفسدون عليه حظره عليهم ،
فالمطلق حلال ، والمحظور حرام ، وذلك مثل الكلام ، فهي شهوة واحدة ،

النفس ، ورفض ما عرّضت عليه ، فانقمعت النفس وذابت ^(١) ، وسكن غليان الشهوة ، وماتت اللذة ، وسكنت العروق ، ودرست صورة تلك المعصية عن الصدر ، وتخلص العبد ، فأمر بالمجاهدة إذا عرض ذكر شئ على الصدر ، وقد حرم الله عز وجل ذلك الشئ عليه ، وذلك أنه لما عرض الذكر اهتاجت النفس لما ^(٢) هاجها الهوى ، وأورد العدو الزينة التي وضعت بين يديه ، وجعل له السبيل إلى صدره ليزين ، وتلك الزينة هي الفرج الذي وصفنا أنه بباب النار ، فأصله الفرج ، وحشوه الزينة ، وكلاهما من النار خلقا ، سميت شهوة لاهتشاش النفس ، وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حفت النار بالشهوات » ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه في خطبته : « إن العدو مع الدنيا ، وأرصاده مع الهوى ، ومكره في الشهوات » . فإنما يصير العدو إلى العباد مع أفراح الدنيا وزينتها ، ويرصد الهوى الذي يبيح من الآدمي ، ويمكر به إذا اشتبهت النفس ؛ وإنما صار مكرا لأن هذه الشهوات بعضها مطلق ، وبعضها محظور عليه ، فيمكر به في المطلق له ، ليجره إلى المحظور عليه ، لأن النفس بلهاء ، فإذا مرت في الحلال ، فتمكنت منه ، سلس في الحرام ، إذا لم يكن في القلب ما ^(٣) يقيد النفس عن الحرام ، ويقويها حتى لا تسلس ^(٤) ، وقوة القلب من النور.

(١) في ١ : « وذلت » .

(٢) في ١ : « بما » .

(٣) في ١ : « من القوة بما » .

(٤) في ب : « حتى تسلس » .

ثم قال عز وجل : « ما جعل عليكم في الدين من حرج » ^(١) . يعلمهم أنى حين ألزمت جوارحكم أمرى ومنهى ، لم أضيق عليكم حتى تخرجوا ، بل أبحت لكم ، ووسعت عليكم مالا يضيق عليكم ، حتى تفرغوا إلى الحرام ، ولم أحل لكم فرائضى حملا تعجزون عنه ، ووسعت لكم في كل فريضة مالم يضيق عليكم ، وكل شهوة منعتكم عنها ، أطلقت لكم من بعضها ، فوضعت على كل جارحة من هذه السبع حدا ، ووكلتكم بحفظها . والجوارح السبع هى اللسان ، والسمع ، والبصر ، واليدان ، والرجلان ، والبطن ، والفرج ؛ وجعلت مستقر هذه الشهوة فى البطن ، فإن اشتهى الكلام خرج سلطان تلك الشهوة إلى الصدر وإلى القلب ، والقلب أمير على هذه الجوارح ، فإذا غلب سلطان الشهوة وحلاوتها ولذتها على القلب ، وانكمن سلطان المعرفة وحلاوتها ولذتها فى القلب ، وسلطان العقل وزينته وبهجهته فى الدماغ ، تحير الذهن عن التدبير ، وخمد نور العلم ^(٢) فى الصدر ^(٣) ، فظهرت المعصية على الجوارح ؛ وإذا غلب سلطان المعرفة ولذتها وحلاوتها ، وسلطان العقل وزينته وبهجهته ، احتد الذهن ، واستنار العلم ، وانتشر وأشرق ، وقوى القلب ، فقام منتصباً متوجهاً بعين فؤاده إلى الله تعالى ، وجاء المدد والعطاء ، وظهرت العزيمة على ترك ^(٤) المعصية العارضة فإذا ظهرت العزيمة وجد القلب قوة على زجر

(١) سورة ٢٢ آية ٧٨

(٢ - ٣) زيادة من « ١ » .

(٣) فى ب « تلك » .

وجل : « حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم »^(١). فلما نالت النفس تلك الزينة كرهت الكفر والفسوق والعصيان ؛ فالؤمن إذا أذنب فإنما يعصى بالشهوة والنهمة وهو كاره للفسوق والعصيان ، ومع الكراهية يفسق ويعصى بغفلة ، ولا يقصد الفسق والعصيان كما قصد إبليس ، فتلك الكراهية موجودة فيه ، والشهوة غالبة عليه ، والكراهية من أجل التوحيد الذي فيه ، إلا أن القلب مقهور بما فيه ، والعقل منكمن ، والصدر ممتلىء من دخان تلك الشهوة ، والنفس بما أوردت قاهرة للقلب ، لأن العقل قد غاب ، والمعرفة قد انفردت ، والذهن قد تبدد ، والحفظ مع العقل منكمن في الدماغ ، والنفس قد قامت على ذنبها ، بما وجدت من القوة في تلك الشهوة ، والعدو يزبن ويرجى ويمنى المغفرة ، ويدل على التوبة ، حتى يجزئه قلبا ويشجعه .

فلما كان العبد بهذه الصفة ، أمر بالمجاهدة ، فقال عز وجل : « وجاهدوا في الله حق جهاده »^(٢). ثم لما علم أن المجاهدة تشتد وتصلب على العباد ، أخبرهم عن منته وحسن صنيعه ، وره وطفه بهم ، فقال عز وجل : « هو اجتباكم ، وما جعل عليكم في الدين من حرج »^(٣) ؛ يعلمهم أنه لو لم يحبهم ، ولم يوقع اختياره عليهم ، ما كانوا ينالون نور الرحمة ونور المعرفة ، وكانوا أسارى في يد العدو ، وحطبا للنار ، فأخبرهم أنه اجتباهم ،

(١) سورة ٤٩ آية ٧

(٢) سورة ٢٢ آية ٧٨

قلبه ، أى غمس قلبه فى ماء الرحمة حتى طهره به ، وهو قوله عز وجل
 « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » ^(١) ثم أحياء بنور الحياة ، وقد
 كان قبل ذلك بضعة من لحم جوفاء ؛ فلما أحياء بنور الحياة تحرك وفتح
 عينيه اللتين على القواد ، ثم هداه بنوره ، وهو نور التوحيد ونور العقل ؛
 فلما أشرق فى صدره ، واستقر القواد وهو القلب إلى ذلك النور ، فعرف ربه
 عز وجل بذلك ، فذلك قوله عز وجل : « أو من كان ميتا فأحييناه » ^(٢) ،
 أى بنور الحياة ، ثم قال تعالى : « وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس » ^(٣) ،
 أى نور التوحيد يمشى من ذلك النور فى الناس ^(٤) ، ثم أوله قلبه بذلك
 النور إليه ، حتى اطمأنت النفس وسكنت إلى أنه وحده لا إله غيره ،
 فعندها نطق اللسان عن طمأنينة النفس وموافقتها للقلب بلا إله إلا الله ،
 وذلك قوله عز وجل : « وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله » وهو قوله
 عز وجل : « يأتيتها النفس المطمئنة » ^(٥) ، فلما اطمأنت النفس حين رأت
 تلك الزينة التى زين العقل بين عيني القواد توحيد الرب عز وجل ،
 وجدت حلاوة حب الله تعالى ، التى وردت على القلب مع نور التوحيد ؛
 فلما رأت تلك الزينة وجدت حلاوة الحب الذى فى نور التوحيد ، فعندها
 اطمأنت وسكنت إلى توحيده ، فشهدت بلا إله إلا الله ، وذلك قوله عز

(١) سورة ٢ آية ١٣٨

(٢) سورة ٦ آية ١٢٢

(٣-٣) زيادة من « ب » .

(٤) سورة ٨٩ آية ٢٧

قلوبنا غلف» ^(١) وقال تعالى : « بل قلوبهم في غمرة ^(٢) من هذا » . وصار
 القواد من المؤمنين في دخان الشهوات وغيوم الكبر ، فذلك غفلة .
 ومن الكبر أصل الغضب والكبر في النفس لما أحست بما ولى
 الله تعالى من خلقها ، فيبقى ذلك الكبر فيها . فهذه صفة ظاهر الآدمي
 وباطنه . فوقعت الجباية من الله تعالى والخيرة على هذا الموحد ، من كل
 ألف واحد ، وبقي تسع مئة وتسعة وتسعون ، رفع البال عنهم ، وجعل
 باله لواحد من كل ألف من الآدميين ، فقسم الحظوظ يوم المقادير بالبال ،
 ورفض من لم يبال به ، فخابوا عن الحظوظ ، فلما استخرجهم ذرية من
 الأصلاب استنطقهم ، فاعترف له أهل الحظوظ من باله ، طوعا لقوله عز
 وجل حين قال : « أأست بر بكم » ^(٣) . واعترف من خاب عن الحظوظ ،
 ومن لم ينل من باله بقوله : « بلى » كرها ؛ فذلك قوله عز وجل : « وله أنسلم
 من في السموات والأرض طوعا وكرها » ^(٤) ، فيصيرهم فريقين : عن اليمين
 وعن الشمال ، ثم قال تعالى : هؤلاء في الجنة ولا أبالي ، أى لا أبالي بمغفرتي
 أن تنالهم ؛ وهؤلاء في النار ولا أبالي ، أى ولا أبالي بهؤلاء ، إلى أين
 يصيرون ؛ ثم ردهم إلى صلب آدم عليه السلام ؛ فيخرجهم في أيام الدنيا
 للأعمال وإقامة الحجة ، فكل من وقعت عليه جبايته واختياره له ، وصنع

(١) سورة ٢ آية ٨٨

(٢) سورة ٢٣ آية ٦٣

(٣) سورة ٧ آية ١٧٢

(٤) سورة ٣ آية ٨٣

القدم ؛ فإذا دبّت في العروق ، ولذت النفس ديبها وانفشاشها ^(١) في الجسد ، وامتلاّت النفس لذة ، وهشت إلى ذلك الشيء ، فتلك شهوتها ولذتها ، فإذا تمكنت النفس بتلك الشهوة واللذة من جميع الجسد ، فصارت تلك الشهوة نهمة على القلب ، والنهمة غلبة الشهوة وغلبانها ، فإذا غلت الشهوة غلبت على القلب ، فيصير القلب منهوما ، وهو أن تقهر القلب حتى تتمنّه ، فتستعمله بذلك ، فيصير سلطان الهوى والشهوة مع النفس ومسكنها في البطن ، وسلطان المعرفة والعقل والعلم والفهم والحفظ والذهن في الصدر ، وجعل المعرفة في القلب ، والفهم في القوادم ، والعقل في الدماغ ، والحفظ قرينه ؛ وجعل للشهوة بابا من مستقره إلى الصدر ، يفور دخان تلك الشهوات التي جاء بها الهوى ، حتى يتأدي ذلك إلى الصدر ، فيحيط بفؤاده ، وتبقى عينا القوادم في ذلك الدخان ، وذلك الدخان اسمه الحمى ، قد حال بين عيني القوادم وبين النظر إلى نور العقل ماذا يدبر له ؛ وكذلك الغضب إذا فار ، فهو كالغيم يقف بين عيني القوادم حتى يصير العقل منكنا ، لأن العقل مستقره في الدماغ ، وشعاعه مشرق إلى الصدر ، فإذا خرج ذلك الغيم (غيم الغضب) من الجوف إلى الصدر ، امتلاّ الصدر منه ، وبقيت عينا القوادم في ذلك الغيم ، لأن شعاع العقل قد انقطع ، وحال الغيم بينه وبين القوادم ، فصار القوادم من السكافز في ظلمة الكفر ، وهي الغفلة ^(٢) التي ذكرها الله تعالى في التنزيل : « وقالوا

(١) في ١ : « وانفشاشها » .

(٢) في ب : « الغفلة » .

به ؛ وإنما صار دفقا لقوة الفرح ، وهبوب رياحها ، وضيق المخرج ؛ فإذا افتقد الإنسان الفرح عجز عن الدفق . فهذا لعامة الآدميين . ثم خص المؤمنين بنور العقل ، فجعل مسكنه في الدماغ ، وجعل له بابا من دماغه إلى صدره ، ليشرق شعاعه بين عيني القواد ، ليدير القواد بذلك النور الأمور ، فيميز بين الأمور ما حسن منها وما قبح ، ووضع نور التوحيد في باطن هذه البضعة ، وهي القلب ، وفيه نور الحياة فحي القلب بالله تبارك وتعالى ، وفتح عيني القواد ، فأشرق نور التوحيد إلى الصدر من باب القلب ، فأبصر عينا القواد بنور الحياة التي فيهما نور التوحيد ، فوحده الله عز وجل ، وعرفه ، وميز العقل تلك العلوم التي أعطى الذهن في صدره جملة ، فيصيرها شعبا شعبا ، فصارت معرفة حين انشعبت ، فهذا عمل العقل في الصدر .

والهوي أصله من نفس النار ، فإذا خرج ذلك النفس من النار ، احتمل من ذلك الخفوف ^(١) من الشهوات بباب النار فيها الزينة والأفراح ، فأورد على النفس . فإذا نالت النفس ذلك الفرح والزينة ، هاجت ^(٢) بما فيها من الفرح والزينة الموضوععة إلى جانبها ^(٣) في ذلك الوعاء ، وهي ريح حارة ، فدبت في العروق ، فامتلات العروق منها في أسرع من الطرفة ، والعروق مشتملة على جميع الجسد ، من القرن إلى

(١) في ١ : « الخفوف » .

(٢) في ١ : « تلاحت » .

(٣) في ب : « التي جاءت بها » .

ليكون فرقا بين النوعين . فالنفس إذا هبت تلك الريح من ذلك الوعاء لعارض ذكر شيء ، أحست النفس بذلك ، فالتهبت نار الحرارة بتلك الريح ، والنفس مسكنها في الرئة ، ثم هي منفضة في جميع الجسد ، والروح مسكنه في الرأس إلى أصل الأذنين ، ومعلقها ^(١) في الوتين ، وهي منفضة في جميع الجسد ، والروح فيه حياة ، والنفس فيها حياة ، فهما يعملان في جميع الجسد لحياتيهما ، حتى تتحرك الجوارح في جميع الجسد في الظاهر والباطن بالحياتين اللتين وضعتا فيهما ؛ والروح نور فيه روح الحياة ، والنفس ريح كدرة جنسها أرضية ، وفيها روح ^(٢) الحياة . ووضع الرحمة في الكبد ، والرأفة في الطحال ، والمكر في الكليتين ، وعلم الأشياء في الصدر ، وجعل مستقر الذهن في الصدر ، ثم هو متفش في البدن كله ، والذهن يقبل العلم جملة ، وقرينه الحفظ ؛ وجعل في ناصيته الفهم ، وجعل له طريقا إلى عين القواد ، فالحفظ مستودع العلم ، فإذا احتاج القواد إلى شيء لحظ إلى الحفظ ، فأبرز الحفظ له علم ذلك الشيء المستودع الذي قد تعلمه . وجعل ماء الذرية في صلبه ، فمنه ماء أخذ عليه الميثاق يوم أخرجهم من الظهور ، فعرضهم على آدم صلى الله عليه وسلم ؛ ومنه ماء لم يؤخذ عليه الميثاق ، وجعل مجراه من صلبه إلى نفسه . ووضع الفرح في قلبه ، وجعل مجراه إلى صلبه ، لتأدي حرارة ذلك الفرح إلى الصلب ، فتذيب ماء الصلب ، فبقوة هذا الفرح يخرج ذلك الماء ، فيدقق

(١) في « ١ » ومعلقها .

(٢) في « ١ » ريح .

وخبز ملة^(١)، لأنها خبزة قد ظاهرها أخرى؛ وجعل له على هذا القواد عينين وأذنين، وبابا^(٢) في الصدر^(٣)، وصير القلب بيتا له عينان وأذنان، وبابا في الصدر؛ وجعل الصدر ساحة هذا البيت؛ وجعل إلى جانبه بضعة أخرى سماها كبدا، وجعلها مجمع عروق هذا الجسد كله، ومنه ينقسم ما يخرج^(٤) من المعدة من قوة الطعام الذي طحنته المعدة، حتى صار دما طريا، فخرى في جميع العروق؛ وألصق بأسفله بضعة أخرى، فسمها طحالا، وإلى جانب الأخرى سماها رئة، ومسكن النفس فيها، ومنها تتنفس النفس لحياتها^(٥) التي فيها، فتخرج الأنفاس إلى الفم والمنخرين؛ ثم وضع بين القلب والرئة وعاء رقيقا، فيه ريح هفافة، تجري^(٦) في العروق^(٧) مجري الدم، وأصل تلك الريح من باب النار، مخلوقة من نار جهنم، لم يصل^(٨) إليها سلطان الله وغضبه، فتسود كما اسودت جهنم، بل هي نار مضيئة خفت النار بها؛ موضوع في هذه النار الفرح والزينة، وسماها شهوة؛ وإنما سميت شهوة لاهتشاش النفس إليها، يقال؛ اهتشت واشتيت؛ الاهتشاش في الظاهر، والاشتيا في الباطن، وكلاهما في الحروف عددهما سواء، إلا أنه قدم الماء هاهنا وآخر هناك،

(١) خبز الملة: ما يخبز في الملة، وهي الراماد الحار يحمى ليدفن فيه الخبز لينضج.

(٢ - ٢) زيادة من ب.

(٣) في ١ « ما يخرج ».

(٤) في ١ « بحياتها ».

(٥ - ٥) زيادة من ب.

(٦) في ١ « بطراً ».

يختلف بهما في قطع المسافات ؛ وعينين بهما يشتمل على الألوان لذة وجهدا^(١) ؛ وأذنين بهما يتناول الأصوات لذة وخبرا ؛ ولسانا يديره في قبو حنكه إلى شفتيه ، ليتلفظ بنغماته من صدره إلى شفتيه ، مؤدية تلك النغمات معاني الأمور التي يعقل ، وتتردد في صدره صور تلك الأمور ، فتصير تلك الصور حروفا مؤلفة ، فيبرزها بصوت يسمع به آذان المستمعين له ، حتى تصير تلك الأسباع قعما لهذا الصوت ، فيتحول مافي صدر هذا من علم الأمور ، إلى صدر المستمع ، من طريق فم هذا إلى أذن الآخر ، فيكون قد أفرغ مافي صدره من صور الأمور ومعانيها بالحروف والصوت ، إلى صدر صاحبه . وجعل له منخرين للنفس والمشام ، ومعدة صيرها دار رزقه ؛ وباب هذه الدار متصل بالقبو^(٢) ، وبابين في أسفل جسده ، أحدهما مخرج للذرية ، والآخر مخرج الفضول والأذى ؛ وذلك أن العدو لما غره حتى أكل من الشجرة ، وجد السبيل إلى معدته بتلك الأكلة التي أطاعه فيها ، فجعله مستقره ، ففتن مافي المعدة لرجاسة العدو ؛ فمن هاهنا وجب علينا غسل الأطراف مما يظهر من المعدة من الغائط والبول وريحهما ؛ ثم وضع في جوفه بضعة جوفاء سماها قلبا وفؤادا ، فما بطن منها فهو القلب ، وما ظهر منها فهو الفؤاد ؛ وإنما سمى قلبا لأنه يتقلب بتقليب الله عز وجل إياه ، لأنه بين أصبعين من أصابع الرحمن عز وجل ، يقلبه بمشيئاته فيه ؛ وسمى فؤادا لأنه غشاء لتلك البضعة الباطنة ، ومنه يقال : هذا خبز فئيد ،

(١) في ١ : « وخبرا » .

(٢) في ١ : « بالقبة » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« قال أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن الترمذي رحمه الله عليه » :
الحمد لله رب العالمين ، ولي الحمد وأهله . أما بعد ، فإن الله تعالى خلق
الآدميين لخدمته ، وخلق ماسواهم سخرة لهم ؛ فقال تعالى في تنزيله : (هو
الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا) ^(٢) ، ثم قال : (وسخر لكم ما في
السموات وما في الأرض جميعا منه) ^(٣) ، فجعل في كل مسخر ما يحتاج
إليه هؤلاء الخدم ، وما يرجع نفعه إليهم ، وهم كلهم قانتون ، يؤدون ^(٤)
السخرة إلى هؤلاء الخدم ؛ فأظهر خلقهم من القدرة بقوله « كن » ، وأظهر
خلق هؤلاء الخدم من المحبة بيده ؛ فعجن طينته ، وصوره بيده ؛ ثم جعله
ذا أجزاء ، كل جزء منه يعمل عملا غير عمل الآخر ، ثم نفخ فيه من روحه ،
وهو روح الحياة ، ونفست الطينة ، فبدت ^(٥) النفس واستقرت ،
وتنفست ^(٦) في الجوف ؛ فجعل في ظاهره يدين ذوات أصابع ومفاصل ،
يبسط ويقبض ؛ ورجلين موشجتين في الوركين ، ذواتي ساقين ؛ وقدمين

جعلنا أرقام السور والآيات على حسب ترقيم « مصحف الملك » المطبوع بمطبعة
مصطفى البابي الحلبي وأولاده بالقاهرة .

(١ — ١) زيادة في ١

(٢) سورة ٢ آية ٢٩

(٣) سورة ٤٥ آية ١٣

(٤) في ١ : « مؤدون » .

(٥) في ١ : « فبدت » .

(٦) زيادة من ١

كتاب الرّايضة

للإمام أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي

(١) كتاب الرياضة ، ص ٤٢-٦٦

(٢) مختارات من كتاب الصفاء ، ٦٧-٧٩

(٣) رساله بلا عنوان ، ٧٩ ب - ٨٤

(٤) أدب النفس

(٥) رسالة بلا عنوان

وقد كتب هذا المخطوط بالنسخ ، ولم يؤرخ أيضا ، وأغلب الظن أنه كتب في القرن الثامن الهجرى ، (الرابع عشر الميلادى) ، وفى كل صفحة ١٩ سطرا . وكان كاتبه - على العكس من المخطوط الأول - على معرفة جيدة ، الأمر الذى جعله يتفادى كثيرا من الأغلاط .

وقد وضعنا فى تعليقاتنا الاختلافات الجوهرية فى المخطوطين ، ووجدنا من الخير ألا نملأ الصفحات بذكر أخطاء واضحة ، ترجع إلى عدم العناية أو عدم المعرفة .

ولا يسعنا إلا أن نعبر عن شكرنا للمستتر شستريتي ، على وضعه المخطوط تحت تصرفنا ؛ وكذلك لمدير المكتب الهندسى بلندن (India Office) لسماحه لنا باستعمال مصورة مخطوط إستانبول المحفوظ بالمكتبة ، كما نشكر لأصحاب مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده عنايتهم الكريمة بطبع هذا الكتاب ، والسلام .

لندن فى أول جمادى الآخرة سنة ١٣٦٦ - ٢٢ أبريل سنة ١٩٤٧

١. ج . أربرى ، على حسن عبر القادر

والخلقية خاصة . وقد اعتمدنا في الإخراج على هذين المخطوطين :

المخطوط أ :

وهو مخطوط بمكتبات إستانبول (مكتبة عاشر رقم ١٤٧٩) ويحتوى على مجموعة من رسائل الترمذى ، هى :

- (١) كتاب العادة والنفس ، ص ١٣٢-١٥٨ الأعضاء
 - (٢) منازل العباد فى العبادة ، ص ١٥٩-١٦٧
 - (٣) كتاب العقل والهوى ، ص ١٦٨-١٧٣
 - (٤) كتاب الأمثال من الكتاب والسنة ، ص ١٧٢-٢٣١
 - (٥) كتاب حقيقة الآدمية ، وهو كتاب الرياضة ، ص ٢٧١-٢٨٦
- وقد كتب هذه المخطوط بالخط الفارسى الواضح ، ولم يؤرخ ؛ ويغلب على الظن أنه كتب حوالى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، وتحتوى كل صفحة منه على ٢٧ سطرا . ويظهر فى هذا المخطوط عدم الاهتمام الملحوظ فى كتابته ، وأن الكاتب لم يكن عربيا ، وكل ما هناك أنه وجد أمامه الأصل ، فاجتهد فى نسخه ؛ وبالرغم من ورود أخطاء كثيرة — وضعنا بعضها فى التعليقات — كانت هذه النسخة مهمة لتصحيح بعض الأخطاء ، وأضافه بعض الزيادات التى لا توجد فى المخطوط (ب) .

المخطوط ب :

وهو مخطوط فى حوزة مستر شستر بيتى بلندن ، ويحتوى على مجموعة من رسائل الترمذى ، هى :

صوفي ظهرت عنده آثار التغذية من الفلسفة اليونانية ؛ وبهذا مهد السبيل لأعمال الفارابي . وتعتبر فلسفة الترمذى فلسفة ثانوية ، فإنه كان يحرص على أن يحدد بشكل منسجم مع العقل ، عرض المحاولات الاعتقادية عند ابن كرام والترمذى نظرى فى أسلوبه ، وقد انتهج هذا النهج ليلم فى جريدة واحدة بكل التجارب الصوفية الباطنية ومذهبه فى «العقل» مذهب توزييعى ، يصنف المعرفة أصنافا بين أفراد المؤمنين ، وقد مهد بهذا السبيل لمذهب المعرفة « الفنسوية » عند ابن التستري . ويشرح الترمذى نظرية الكسب كرد فعل للرجئة . أما فى الناحية النفسية الصوفية ، فقد بين بإجادة « علم القلوب » ، ولكنه يفرق بين القلب والصدر ؛ والقلب عنده الأداة للفكر ، وهو فى نفس الوقت مادة من اللحم . وهو يدافع عن درجات الولاية ، وعلى الأخص من ناحية الإشراق العقلى ، بدون أن يسمح لتدخل الوجد الذى يغير من الجسم ، أو للحب الذى يغير من الإرادة وكان لتلميذه أبى بكر محمد الوراق الترمذى ، أثر فى مدرسة الملامتية ^(١) »

المراجع :

ولما صح العزم على إخراج هذه السلسلة فى الآداب الصوفية . رأينا أن نبدأ الكتاب الأول منها بهاتين الرسالتين لإبى عبد الله الحكيم الترمذى ، وهما من أمهات كتبه ، التى توضح أهم تعاليمه فى الناحية النفسية ،

(١) L. Massignon; Essai sur les origines p.256-264. (١)

فيؤدبها ، وإلزام كل جارية من جوارحه السبع - وهى اللسان ، والسمع ، والبصر ، واليدان ، والرجلان ، والبطن ، والفرج - الفطام عن عملها حالاً أو حرماً ، حتى تموت تلك الشهوة ؛ فإذا ترك الرياضة أحاطت فوراً بالقلب الشهوات كالدهان والغميم ؛ ومن لم يرض نفسه فإذا جاهد فربما غلب وربما غلب . فأما الأكياس فراضوا أنفسهم فأدبوها ، فامتنعوا عن الحلال المطلق لهم ، حتى هدأت جوارحهم ؛ فإذا استعملوها كان القلب أميراً قاهراً ، فاستعمل تلك الشهوة بما يريد العقل ، فهناك يملك نفسه . ثم يقول : وهذا الذى وصفنا من تركك الشهوات ، وتجنبك اللذات ، ليس تحريم ما أحل الله لك ، ولكن تأديب لنفسك ، ورياضة لها . . . فإذا صفا قلبك من الهوى حينئذ تجد اليقين ، لأن اليقين نور يحدث على قلبك من نور معرفتك ، والقلب إذا أقبلت على الله وغلبه الهوى ، لم يشرق بالنور الأعظم ، لأن الهوى قد حال بين نور المعرفة وبين النور الأعظم ، وهو اليقين - فإذا ذهب الهوى فنظرت له تلاقى النوران ، فأشرق فى صدرك ، فأبصرته عين قلبك ، فصار يقيناً . وهكذا يسوق لنا كل ما يتعلق بالرياضة ، مستشهداً بالقرآن والحديث ، ضارباً الأمثال المختلفة فى طرق التأديب ، فى أسلوب ممتع مقنع ، يحمل فى طياته معرفة واسعة بالحكمة والدين وأسرار النفس ، ووضع بهذا أساس الرياضة لمن جاء بعده .

ومن الخير أن نختم القول فى مذهب الحكيم الترمذى بهذا الإجمال الفريد ، الذى ساقه الأستاذ الكبير ماسنيون ، قال : « كان أول مسلم

فالقلب هو ملك على الجوارح ، وهو بضعة جوفاء من لحم ، في بضعة أخرى هي الفؤاد ، وهو بيت له عينان وأذنان وباب في الصدر ، وجعل الصدر ساحة هذا البيت ؛ وهو بمنزلة قنديل معلق في بيت ، وهو الصدر . والعقل في الدماغ له باب إلى الصدر ، يشرق شعاع هذا العقل على عيني الفؤاد ، ليدبر الفؤاد بذلك النور الأمر ، ويميز بين الحسن والقبيح ، وهي المعرفة ، وحائط هذا البيت الصدر ، يشرق عليه نور المصباح ، فإذا رفعت شيئاً بين الحائط والمصباح ، وقع لذلك الشيء ظل على الحائط والنفس مسكنها الرثة ، ثم هي منفضة في جميع الجسد ؛ ووضع بين القلب والرثة وعاء رقيقاً ، فيه ريح هفافة ، تجري في العروق مجرى الدم ، وهي نار مضئية ، موضوع في هذه النار الفرح والزينة ، وسماها شهوة . فإذا هبت تلك الريح من ذلك الوعاء ، لعارض ذكر شيء ، أحست النفس ذلك ، فالتهمت نار الحرارة بتلك الريح ، فيفور دخان الشهوات ، حتى يتأدى ذلك إلى الصدر ، فتحيط بفؤاده ، وتبقى عينا الفؤاد في ذلك الدخان ، يحول بين عيني الفؤاد وبين النظر إلى نور العقل ...

ثم يشرح في أثناء ذلك نظريته في الرياضة والمجاهدة :

فالقلب مقهور بما فيه ، والعقل منكمن ، والصدر ممتلئ من دخان تلك الشهوة ، والنفس بما أوردت قاهرة للقلب ؛ لأن العقل قد غاب ، والمعرفة قد انفردت ، والذهن قد تبدد ، والحفظ مع العقل منكمن في الدماغ ، والنفس قد قامت على ذنبها ، بما وجدت من القوة في تلك الشهوة . . .
فلما كان العبد بهذه الصفة ، أمر بالمجاهدة ، والجهد أن يروض نفسه

للمصوفيه وتعاليمهم ، حتى شيوخهم غير المعروفين أو المشهورين ؛ وكذلك أبو بكر الكلابدقي في كتابه « التعرف ، لمذاهب أهل التصوف » ، لم يذكره الحكيم الترمذى ، مع أنه عقد فصلا خاصا عن النبوة والولاية ، جاء فيه بمثل ما جاء عند الهجو يري من النتائج ^(١) ؛ ثم أبو القاسم القشيري ، ذكر الترمذى ولكنه لم يعطه إلا قليلا مما يستحق ؛ وهذا يجعلنا نشعر بأن السبب في أهمال هؤلاء الكتاب الكبار ، الذين كتبوا عن الصوفية في القرنين الرابع والخامس ، لم يقتنعوا بحال الترمذى ، ليتخذوا منه دليلا على خطئهم في الدفاع عن الصوفية ، ضد أولئك الذين يرونها مخالفة للكتاب والسنة .

وإذا كان الترمذى قد وضع « للولاية » قواعد وأصولها ، وهو الأمر الذى بنى عليه الصوفية نظمهم فى ذلك بعد ، وكان له أثر هام فى تعاليمهم فى الولاية ، فهو قد وضع لهم قواعد « الرياضة النفسية » ، ورتب لهم أصولها الظاهرة والباطنة ، ورسم للمصوفية الطريق لأدب النفس ورياضتها ، وتبعوا ذلك بعده شبرا ، بشبر وذراعا بذراع .

فى هاتين الرسالتين : « الرياضة » و « أدب النفس » - وهما بطبيعة الحال تحتاجان إلى بحث أدق وأوسع ، لا يتسع له هذا المقام - حاول شرح أجزاء الجسم الإنسانى ، وربط بكل جزء منها عملا من أعمال النفس والخلق ، وشرح الاضطرابات النفسية ، والخصال الخلقية ، على أساس الارتباط بين أعمال الجوارح بعض وبعض .

(١) كتاب التعرف (طبعة أربرى) ص ٤٣ - ٥١ .

الولاية مفتوح؟ هذه هي نقطة الخطر والغموض في هذا المذهب، بناء على هذا المعنى.

أما إذا أردنا بالخاتم الآخر، كما هو المتبادر، فلا يكون محمد خاتم الأولياء، مادامت الولاية مستمرة بعده؛ ولكن من عسى أن يكون خاتم الأولياء غير محمد؟ ألا يجوز أن يكون هذا الخاتم أفضل من خاتم الأنبياء، مادامت الولاية في طبيعتها أفضل من النبوة؟ وهذا أيضا موضع خطر بالنسبة لهذا التفسير الأخير.

وأيا كان الأمر، فليس من شك في أن هذا المذهب كان محل نقاش وجدال في الأوساط العلمية وغيرها في بلده، وكان سببا لطرده منها، وما قاله السامعي من عدم فهم الناس له، إنما هو حسن اعتذار، وإلا فالموضوع مهما قلبناه على أية ناحية من نواحيه، يسوق إلى نتائج لا يوافق عليها الرأي العام الإسلامي، سواء في ذلك (١) تفضيله الولاية على النبوة، أو (٢) اختصاص الولي بما ليس عند النبي، أو (٣) القول في الخاتم (١). وبالرغم من أن هذا المذهب كان له أثر بعيد في التصوف الإسلامي، في تحديد الولاية ودرجات الأولياء وما إلى ذلك، بالرغم من هذا، إنه من الغريب أن مثل أبي نصر السراج في كتابه «اللمع»، لم يذكر مرة هذا الإمام، ولم يسق إلينا قولاً واحداً من أقواله، وكتابه كما هو معروف مرجع

(١) راجع أيضا «كشاف اصطلاحات الفنون» للتهانوي مادة «ولي» و «صوفي» و «لائمان» — وبالرغم من هذا الإبهام الترمذي معترف بأن محمداً خاتم الرسل، يقول في أدب النفس: «قد ختم الله تعالى بالرسول الرسالة، ولم يبق في الأرض بعده إلا المهيمون والمحدثون».

والنبي معصوم من المعاصي ، والولى محفوظ من الإصرار على المعاصي ؛ كما أن النبي ظاهر الحال ، ولكن الولى مستور الحال ، والكون ناطق بولايته ؛ والنبوة مختومة من حيث الإنباء والإخبار ، ولكنها دائمة من حيث الولاية والتصرف ، لأن نفوس الأولياء حملة تصرف ولايته ، يتصرف بهم فى الخلق بالحق إلى قيام الساعة .

وكما أن النبوة تمثل دائرة متألفة فى الخارج من نقط وجود الأنبياء ، كاملة بوجود النقطة المحمدية ، فالولاية أيضا دائرة متألفة فى الخارج من نقط وجود الأولياء ، كاملة بوجود النقطة التى تحتم بها الولاية . فالنبوة لها خاتم ، يكملها والولاية كذلك لها خاتم يكملها .

هذا هو السبب فى وجود الخاتم . وبقي أن نعرف ما هو الخاتم ؟ وظاهر كلام الترمذى أن الخاتم مقام يستحقه الولى حيث (يناوله مفاتيح الكرم ، وخزائن المنن) والمفروض على هذا أن يكون محمد خاتم الأولياء ، فهو (صاحب المقام المحمود . . . وصاحب المغفرة) ، كما هو خاتم الأنبياء ؛ وعلى هذا يكون المراد بالخاتم « الإنسان الكامل » ، ويشهد لهذا ما قاله صاحب الإنسان الكامل : « حيث وقع فى مؤلفاتى الإنسان الكامل ، فإنما أريد به محمد » . ثم قال : « وللا انسان الكامل ثلاثة برازخ ، وبعدها المقام المسمى الخاتم » ؛ ولكننا إذا اعتبرنا الخاتم بمعنى الكامل لا الآخر - والمفروض أن الولاية قائمة إلى قيام الساعة - فكيف يمكن أن يستقيم هذا فى خاتم الأنبياء ، وهل يجوز أن يبقى باب النبوة مفتوحا ، كما أن باب

بالولاية ، وما يتعلق بها ، كما وضع ذلك الحكيم الترمذى :
 يرى الحكيم الترمذى : أن الولاية ، وهى القربة إلى الله تعالى ، تعم
 المؤمنين ، قال تعالى : « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » .
 وهناك ولاية خاصة ، وهذه درجات ومنازل ؛ فمنازل المحدثين ، وقد ثبت
 فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن فىكم محدثين ،
 وإن منهم عمر » ^(١) ؛ وهم الذين اختارهم الله ، وقربهم إليه بالمناجاة
 والحديث ، وأنزل عليهم السكينة ، واختصهم بالاسم الخفى ، وجعل لهم
 التصرف فى الخلق بالحق .

ومن الولاية ولاية الأنبياء والمرسلين ، وهؤلاء يحملون فى نفوسهم
 الولاية فى الباطن بخواصها ، ولكنهم قد امتازوا بخاصة ، وهى الوحي والنبأ
 والرسالة ، وهو ظاهر النبوة . فكل نبي ولى ، وليس كل ولى نبيا ؛ وقد
 يخص الله وليا من أوليائه بشئ لا يوجد عند النبي ، ودليل ذلك قصة
 سليمان عليه السلام ورسوله ، قال تعالى : « فقال أحطت بما لم تحط به ، وجئتك
 من سبأ نبأ يقين . . . » الآيات . فهذا خلق غير الأنبياء أحيط بما
 لم يحيط به النبي .

والولاية أفضل من النبوة ، وذلك على معنى أن ولاية النبي أفضل
 من نبوته ، لأن نبوة التشريع متعلقة بمصاحبه الوقت ، والولاية لا تعلق لها
 بوقت ؛ والنبوة صفة الخلق دون الحق ، والولاية صفة الحق ، ولهذا يطلق
 على الله اسم الولى دون النبي . وقد كره القوم إطلاق القول فى ذلك بدون
 هذا التقييد .

(١) راجع مقدمة ابن خلدون (طبعة بيروت) ص ١٠٩ - ١١٠ .

فإنهم يقولون بأفضلية المسلم على غير المسلم ، ولكن إذا كان الولي لا يفضل غيره ، فالنبي كذلك لا يفضل غيره ، وهذا كفر . والحشوية العوام يقولون بالتفضيل ، ولكنهم ينكرون وجود مثل هذا النوع الآن ، وإن كان موجودا في الماضي ، وهو إنكار أيضا . . .

والله تعالى جعل دلائل النبوة باقية إلى الوقت الحاضر ، وجعل الأولياء مظهرها لهذا المعنى ، علامة واضحة مستمرة على نبوة محمد . فجعل الأولياء حكام هذا العالم ، واختارهم لهذا العمل ، وجعلهم لا يتبعون آثار حواسهم ؛ فبركة حلولهم تملط السماء ، وبتقاء حياتهم ينبت الزرع من الأرض ، وبدعائهم ينتصر المسامون على الكفار . وهم ليسوا معصومين من الذنب ، لأن ذلك للأنبيا خاصة ، ولكنهم محفوظون من الفتنة بالولاية .

هذه هي أصول مذهب محمد بن علي الحكيم الترمذی ، وكذلك الجنيد وأبو الحسن النوري والحارث المحاسبي ، وغيرهم من أهل الحقائق . واعلم أن شيوخ الصوفية بوجه عام ، يقولون إن الأولياء في كل وقت وحال ، أقل رتبة من الأنبياء ، وإن الأنبياء أفضل من الأولياء ، لأن نهاية الولاية بدء النبوة ، وكل نبي ولي ، وبعض الأولياء ليسوا بأنبياء ، والأنبياء خالون دائما من الصفات الإنسانية ، والأولياء كذلك في بعض الأوقات ؛ والحال عند الولي هو مقام عند النبي ، وما هو عند الأولياء مقام هو عند الأنبياء حجاب . هذه هي أصول أهل السنة والمتصوفة^(١) .

وفي ضوء هذا كله ، نستطيع أن نصل إلى النتائج الآتية ، فيما يختص

(١) كشف المحجوب للهجویری (ترجمة نيكلسون) من ٢٤١-٢١٠ .

الترمذى ، ولا تتعجل الحكم بتفضيل شرحه على ابن عربي ، فإنه مثل ابن عربي يكتب في ضوء آرائه الخاصة ، ولم يفصل بعد في مدى اتفاق أخباره مع الحقيقة ، وإن كان من الموثوق بهم ، وهذا بعض ما ذكره في كتابه عن آراء الحكيم في الولاية ، كتبها بعده بنحو ١٦٠ عاما :

قال الهجویری : « فاعلم أن أساس التصوف والمعرفة قائم على الولاية ، وقد أكد هذه الحقيقة كل الشيوخ وإن اختلفت عباراتهم في ذلك ؛ وكان محمد بن علي الحكيم هو أول من طبق هذا الاصطلاح على أصول التصوف ، وقد ألف الشيوخ كتابا في هذا الموضوع ، ولكنها نادرة ، وليست في متناول أحد ؛ وسأشرح لك أقوال هذا العالم الصوفي صاحب هذا الرأي ، حتى تنفع بهذه الآراء ، وكذلك من يقع هذا الكتاب في يده . فاعلم أن الولي هو لفظ جار على السنة الناس وجاء في القرآن وحديث الرسول ...

فمن هذا نرى أن الله تعالى اختار له أولياء اختصهم بصحبته ، واختارهم حكما ملكا ، ومنحهم أنواع الكرامات ، وطهرهم من فساد الطبع ، ومن وساوس النفس والهوى ، وجمع أفكارهم فيه ، ومعرفتهم به ؛ كانوا فيما مضى ، وهم الآن كذلك ، وإلى ما شاء الله إلى يوم القيامة ، لأن الله فضلهم على غيرهم ووعد بحفظ دين محمد . ولما كانت أدلة النقل والعقل لهذا الدين هي عند العلماء ، فإن دلائل الرؤية والبصيرة إنما هي عند الأولياء والختارين عند الله . ويخالفنا في هذا الأمر فريقان ، وهم المعتزلة والخشوية ؛ فإما المعتزلة

(والله يسمى نفسه وليا) ؛ وإذا وصف بها الإنسان فإنما يعنى بها أولئك الذين تحققوا الوحدة به ؛ فهى أعم من النبوة والرسالة ، وهما درجتان خاصتان منها ؛ كما أنها مقام دائم ، أما النبوة والرسالة فهو قسستان ، والأنبياء والرسول بما فيهم من الولاية ، أكمل منهم بما فيهم من النبوة والرسالة ؛ ولم يزعم ابن عربى أن أى ولى كان أفضل منهم ، فحانِب الولاية عند النبي والرسول أفضل من جانب النبوة والرسالة نفسها ^(١) .

فإذا كان ابن عربى فى هذا المسألة ليس إلا شارحا لما كتبه الترمذى فى هذا الموضوع ، فإنه يكون واضحا أن الترمذى فى الحقيقة لا يفضل الولى على النبي ، مادام الأنبياء هم أولياء ، قبل أن يكونوا أنبياء ، وكل ما هناك أن النبي قد يكون فى طاقته كولى ، أقرب إلى الله بمعرفته الكاملة الصحيحة ، منه كنبى . على أن ابن عربى قد تخطى ما عند الترمذى ، فإنه يرى فى نفسه أنه خاتم الأولياء ، ولم يثبت عندنا أن الترمذى فعل ذلك ، وأغلب الظن أنه قد يرى أن محمدا خاتم الأولياء ، كما هو خاتم الأنبياء .

على أن هناك شارحا آخر لمبدأ الترمذى فى الولاية قبل ابن عربى ، وهو أبو عثمان الجلالى الهجويزى الفارسى (المتوفى بين سنة ٤٦٥ هـ = ١٠٧٢ م وبين سنة ٤٦٩ هـ = ١٠٧٦ م) فى كتابه الفارسى المشهور « كشف المحجوب » ، فقد عقد فصلا عن تعاليم الحكيمية ، أتباع الحكيم

A. E. Afifi, The Mystical Philosophy of M. al-D. (١)
Ibn al-Arabi p. 94-5

لأمتي ؟ ١٥١ - آل محمد ؟ ١٥٢ - أين خزائن الحجة من خزائن الكلام من خزائن علم التدبير ؟ ١٥٣ - وأين خزائن علم الله من علم البدء ؟ ١٥٤ - وما تأويل أم الكتاب ، فإنه ادخراها في جميع الرسل لهذا الرسول ولهذه الأمة ؟ ١٥٥ - وما معنى المغفرة التي قد غفر لنا فيها عليه السلام وقد بشر سائر المرسلين بالمغفرة ^(١) .



وقبل أن نبدي رأينا واستنتاجنا من هذا الثبت ، نرى أن نعرف خاتم الولاية عند ابن عربي ، الذي وضع من غير شك كتاب الترمذى أمامه عند ما كتب ما كتبه ، على ألا ننسى في الوقت نفسه أن ابن عربي فيما استعمله من رسالة الترمذى ، قد وجد الأصول الأولى لمبادئه ، ثم طور هذه المبادئ إلى مبادئه الخاصة ، وذلك معروف في طريقة ابن عربي ، حيث كان يلم بأشتات الموضوعات المختلفة ، ويضم إلى طريقته ما يلائمه منها ، ويزيد إلى ذلك ما يريد . وأيا كان الأمر فإن ابن عربي يرى أن «الولى» هو كلمة اصطلاحية ، تضم كل الرسل والأنبياء ؛ فالرسول عنده ولى عهد إليه في تبليغ رسالة عن الله ، والنبي ولى متميز عن غيره من الأولياء ، بسبب خصوصية فيه ، وهى المعرفة ؛ فالولاية هى أساس كل المقامات الروحية ، وعنصرها الأول ؛ وأنها - كما أضاف ابن عربي - صفة ربانية

(١) فهرس كتاب خاتم الأولياء (مخطوطة لإستانبول عمومية ٣٧٥٠) نقلا عن ماسنيون :

ينظر منهم ؟ ١٢٤ - وإلام نظر من الأنبياء عليهم السلام وكم إقباله على خاصته كل يوم ؟ ١٢٥ - وإلى ما ذا نظر من الأنبياء عليهم السلام ؟ (١٢٦ - ١٢٧) وما المعية ؟ فإنه مع الخلق ومع أصفياه وأنبياه وخاصته وكيف الفرق بين هؤلاء في ذلك التفاوت ؟ ١٢٨ - وما ذكره الذى يقول : ولذكر الله أكبر ؟ ١٢٩ - اذكرونى أذكر كم ؟ ١٣٠ - وما معنى الاسم ؟ ١٣١ - وما رأس الأسماء الذى استوجب منه جميع الأسماء ؟ ١٣٢ - وما الاسم الذى أبهم على الخلق إلا على خاصته ؟ (١٣٣ - ١٣٤) وبم نال صاحب سليمان ذلك وطوى عن سليمان وهو رسول من الرسل ؟ وما السبب فى ذلك ؟ ١٣٥ - ماذا اطلع الاسم : على حروفه أم على معناه ؟ ١٣٦ - وأين باب هذا الاسم الخفى عن الخلف بأبوابه ؟ ١٣٨ - وما كسوته ؟ ١٣٨ - وما حرفه من حروف المعجم ؟ ١٣٩ - والحروف المقطعة مفتاح كل اسم من أسمائه ، فأين هذه الأسماء وإنما هى ٢٨ حرفا ، فأين هذه الحروف ؟ ١٤٠ - وكيف صار الألف مبتدأ الحروف ؟ ١٤١ - كيف كرر الألف واللام فى آخرها ؟ ١٤٢ - ومن أى حساب صار عددها ٢٧ حرفا ؟ ١٤٣ - وما معنى قوله خلق آدم على صورته ؟ ١٤٤ - ليتمنين اثنا عشر نبيا أنهم كانوا من أمتى ؟ ١٤٥ - وما تأويل قول موسى عليه السلام رب اجعلنى من أمة محمد ؟ ١٤٦ - قوله إن الله عبادا ليسوا بأنبياء يغطهم النبيون بمقامهم وقربهم إلى الله ؟ ١٤٧ - وما تأويل قول بسم الله ؟ ١٤٨ - السلام عليك أيها النبى ؟ ١٤٩ - السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ؟ ١٥٠ - أهل بيتى أمان

جميع الوجوه ؟ ٧٨ - وما ذا تقدم إلى ربه من العبودية ، حتى يثني عليه رب العزة ، ويشهد له بقدم الصدق ؟ ٧٩ - وبأى شيء يَحْتَمِه حتى يناوله مفاتيح الكرم ؟ ٨٠ - وما مفاتيح الكرم ؟ ٨١ - وعلى من توزع عطايا ربنا ؟ ٨٢ - وما النبوة ؟ ٨٣ - كم أجزاء النبوة ؟ ٨٤ - كم أجزاء الصديقية ؟ ٨٥ - وما الصديقية ؟ ٨٦ - على كم تثبت العبودية ؟ ٨٧ - وما يقتضى الحق من الموحدين ؟ ٨٨ - وما الحق ؟ ٨٩ - وماذا بدوؤه ؟ ٩٠ - وأى شيء فعله فى الخلق ؟ ٩١ - وبماذا وكل ؟ ٩٢ - وما ثمرته ؟ ٩٣ - وما الحق ؟ ٩٤ - وأين محل من يكون محققا ؟ ٩٥ - وما سكنية الألياء ؟ ٩٦ - وما حظ المؤمنين ؟ ٩٧ - وما حظهم من كل شيء هالك إلا وجهه ؟ ٩٨ - كيف خص ذكر الوجه ؟ ٩٩ - وما مبتدأ الحمد ؟ ١٠٠ - وما قوله آمين ؟ ١٠١ - وما السجود ؟ ١٠٢ - وما بدوؤه ؟ (١٠٣ - ١٠٧) وما قوله : العزة إزارى ، والعظمة رداى ، وما الإزار ؟ وما الرداء ؟ وما الكبر ؟ ١٠٨ - وما تاج الملك ؟ ١٠٩ - وما الوقار ؟ ١١٠ - وما صفة مجالس الهيبة ؟ ١١١ - وما صفة ملك الآلاء ؟ ١١٢ - وما صفة ملك الضياء ؟ ١١٢ - وما صفات ملك القدس ؟ ١١٤ - وما القدس ؟ ١١٥ - وما سبحات الوجه ؟ ١١٦ - وما شراب الحب ؟ ١١٧ - وما كأس الحب ؟ ١١٨ - ومن أين ؟ ١١٩ - وما شراب حبه لك حتى يسكرك عن حبك له ؟ ١٢٠ - وما القبضة ؟ ١٢١ - ومن الذين استوجبوا القبضة حتى صاروا فيهم ؟ ١٢٢ - وما صنعه بهم فى القبضة ؟ ١٢٣ - وكم نظرته إلى الأولياء فى كل يوم ؟ وإلام كان

وما فطرته ؟ ٤٣ - وما الفطرة ؟ ٤٤ - لم سماه بشرا ؟ ٤٥ - وبأي شيء
نال التقدمة على الملائكة حتى أمرهم بالسجود ؟ ٤٦ - وكَم عدد الأخلاق
الذي منحه عطاء ؟ ٤٧ - كم خزائن الأخلاق ؟ ٤٨ - إن لله مائة وسبعة
عشر خلقا ، مائلك الأخلاق ؟ ٤٩ - كم للرسل منها ، أي من هذه
الأخلاق ؟ ٥٠ - كم لحمد صلى الله عليه وسلم منها ؟ ٥١ - وأين خزائن
المنن ؟ ٥٢ - وأين خزائن سعى النفوس ؟ ٥٣ - ومن أين تعطى
للأنبياء ؟ ٥٤ - وأين خزائن المحدثين من الأولياء ؟ ٥٥ - وما الحديث ؟
٥٦ - وما الوحي ؟ ٥٧ - وما الفرق بين المحدثين والأنبياء ؟ ٥٨ - وأين
مكانهم ؟ ٥٩ - وأين سائر الأولياء ؟ ٦٠ - وما حوض الوقوف ؟
٦١ - وكيف صار أمره كليم البصر ؟ ٦٢ - أمر الساعة كليم البصر أو هو
أقرب ؟ ٦٣ - وما كلام الله لعامة أهل الوقوف ؟ ٦٤ - وما كلامه
للموحدين ؟ ٦٥ - وما كلامه للرسل ؟ (٦٦ - ٧١) ما حظوظ الأنبياء
من النظر إليه ؟ وما حظوظ المحدثين ؟ وما حظوظ سائر الأولياء ؟
وما حظوظ العامة ، فإن للحظوظ منهم في هذه الزيارة من التفاوت مالا
يطيق له البشر وصفا ، وكما أن للجنة درجات فكذلك يوم الزيارة لهم
درجات ؟ ٧٢ - في الأخبار موجود أن الرجل منهم ينصرف بحظه من
ربه ، فيذهل أهل الجنان عن نعيمهم اشتغالا بالنظر إليه ٧٣ - وما المقام
الحمود ؟ ٧٤ - وبأي شيء ناله ؟ ٧٥ - كم بين حظ محمد صلى الله عليه
وسلم وبين حظ غيره من الأنبياء عليهم السلام ؟ ٧٦ - وما لواء الحمد ؟
٧٧ - وبأي شيء يثنى على ربه حين يستوجب لواء محمد الخاص من
(٢)

الجواب المستقيم ، عما سئل عنه الترمذى الحكيم :

- ١- عدد منازل الأولياء ؟ ٢- أين منازل أهل القربة ؟ ٣- ومجالسهم حيث هم من خلف ذلك الحجاب ؟ وأين الذين حازوا ، والعساكر بأى شيء حازوا ؟ ٤- وإلى أين منتهاهم ؟ ٥- أين مقام أهل المجالس والحديث ؟ ٦- وكم عددهم ؟ ٧- بأى شيء استوجبوا هذا على ربهم ؟ ٨- وما حديثهم ونجواهم ؟ ٩- بأى شيء يفتحون المناجاة ، وبأى شيء يثمنونها ؟ ١٠- وأى اسم منحه من أسمائه ؟ ١١- وبما ذابحوا وبما ذابحوا ؟ ١٢- وكيف يكون صفة سيرهم ؟ ١٣- ومن الذى يستحق خاتم الأولياء كما يستحق محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبوة ؟ ١٤- بم وبأى صفة يكون ذلك المستحق لذلك ؟ ١٥- ما سبب الخاتم وما معناه ؟ ١٦- كم مجالس ملك الملك ؟ ١٧- أين مقام الرسل من مقام الأنبياء ؟ ١٨- أين مقام الأنبياء من الأولياء ؟ ١٩- بأى شيء حظ كل رسول من ربه ؟ ٢٠- ٢١- أى شيء حظ الأولياء من أسمائه ؟ ٢٢- وأى شيء علم البدء ؟ ٢٣- قول النبي عليه السلام : كان الله ولا شيء معه ٢٤- مبدء الأسماء ؟ ٢٥- مبدء الوحى ؟ ٢٦- مبدء الروح ؟ ٢٧- مبدء السكينة ؟ ٢٨- ما العدل ؟ ٢٩- ما فضل بعض النبيين على بعض وكذلك الأولياء ؟ ٣٠- خلق الله الخلق فى الظلمة ٣١- ٣٢- وكيف صفة المقادير ؟ ٣٣- وما سبب علم القدر الذى طوي عن الرسل فمن دونهم ؟ ٣٤- ولأى شيء طوي ؟ ٣٥- متى ينكشف لهم سر القدر ؟ ٣٦- أين ينكشف لهم ؟ ٣٧- لمن ينكشف ؟ ٣٩- وما العقل الأكبر الذى قسمت العقول منه لجميع خلقه ؟ ٤٠- صفة آدم ٤١- وما توليته ؟

مبادئ :

أشرنا قبل في هذه المقدمة إلى قصة طرد الترمذى من بلده ؛ وقد ذكر لنا السبكي السبب في هذا ، فقال : « قال أبو عبد الرحمن السلمى ^(١) : نفوه من ترمذ ، وأخرجوه منها ، وشهدوا عليه بالكفر ، وذلك بسبب تصنيفه كتاب « ختم الولاية » وكتاب « علل الشريعة » ، وقالوا إنه يقول إن للأولياء خاتما ، كما أن للأنبياء خاتما ، وإنه يفضل الولاية على النبوة ، واحتج بقوله عليه السلام : يغيظهم النبيون والشهداء ، وقال : لولم يكونوا أفضل منهم لم يغيظوهم . ثم جاء إلى بلخ ، فقبلوه بسبب موافقته إياهم على المذهب . ثم اعتذر السلمى عنه ببعد فهم الفاهمين .

قلت : ولعل الأمر كما زعم السلمى ، وإلا فما نظن بمسلم أن يفضل بشرا على الأنبياء عليهم السلام » ^(٢) .

ولعل كتاب ختم الولاية أو ختم الأولياء ، هو كتاب « ختم الأنبياء » ، الذى ورد ذكره عند حاجى خليفة بأنه تأليف مختصر ^(٣) ؛ ولما كان هذا الكتيب غير موجود بأيدينا ، فلا يمكن أن نبدى رأيا جازما فيما تستحقه هذه المسألة الهامة ، التى أدت بالترمذى إلى مثل هذه النتيجة ؛ وكل ما هنالك أن ابن عربى قد أتى بثبت عن رؤوس الموضوعات التى تناولتها هذه الرسالة ، نجد من الخير أن نأتى بها على وجهها :

(١) أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى السلمى ، (توفى ٤١٢ هـ ١٠٢١ م) صاحب طبقات الصوفية « وغيره . انظر مجلة كلية الآداب مجلد ٦ ، ص ٥٤ - ٦٦ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ، ج ٢ ص ٢٠ .

(٣) حاجى خليفة : كشف الظنون (طبعة لإستانبول ١٩٤١) ج ١ ص ٧٠٠ .

- (١٦) منازل العباد في العبادة ؛ نسختان : في ليزج .
 في باريس ، وإستانبول .
 (١٧) العقل والهوى ؛ نسختان في باريس ، وإستانبول .
 (٢٦) كتاب إلى بعض إخوانه ؛ نسخة في ليزج .
 (٢٧) رسالة بلا عنوان .
 (٢٨) مسألة لأهل مراتب القيامة ؛ نسخة في ليزج .
 (٢٩) رسالة إلى محمد بن الفضل ؛ نسخة في ليزج .
 (٣٠) المسائل التي سأله أهل سرخس عنها ؛ نسخة في ليزج .
 (٣١) كتاب إلى ابن عثمان سعيد التيسابوري ؛ نسخة في ليزج .
 (٣٢) المسائل الغضة ؛ نسخة في ليزج .
 (٣٣) رسائل ؛ نسخة في إستانبول ، ويمكن أن تحتوي على بعض الرسائل المقدمة .
 (٣٤) علل العبودية ، أو علل المريعة ؛ نسختان : في برلين ، والقاهرة .
 (١٨) المنهيات ، وكل ما وجد من حديث بانهي ؛ نسختان : في باريس ، وإستانبول .
 (١٩) الأمثال من الكتاب والسنة ؛ نسختان : في باريس ، وإستانبول .
 (٢٠) غور الأمور ؛ نسخة في إستانبول .
 (٢١) مسألة في الإيمان والإسلام والإحسان ؛ نسختان : في ليزج ، ومجموعة شستريتي .
 (٢٢) منتخبات من كتاب الصفاء ؛ نسخة في مجموعة شستريتي .
 (٢٣) رسالتان بلا عنوان ، نسخة في مجموعة شستريتي .
 (٢٤) المسائل المكنونة ؛ نسخة في ليزج .
 (٢٥) كتاب إلى محمد بن الفضل ؛ نسخة

(ب) الكتب المفقودة

- (٣٥) ختم الولاية ، أو خاتم الأولياء .
 أو خاتم الأنبياء ، وأبوابه محفوظة في كتاب : «الجواب المستقيم ، عماسئل عنه الترمذي الحكيم» . لحوي الدين بن عربي . (راجع ما بعد) .
 (٣٦) آداب المريدين ، ذكره الهجویری في كشف المحجوب .
 (٣٧) كتاب عذاب القبر ، ذكره الهجویری في كشف المحجوب .
 (٣٨) كتاب التهيج ، ذكره الهجویری في كشف المحجوب .
 (٣٩) كتاب التوحيد ذكره الهجویری في كشف المحجوب .
 (٤٠) تاريخ المشايخ ، ذكره الهجویری في كشف المحجوب .
 (٤١) كتاب العلوم ، ذكره الترمذي في كتاب الأكياس والمغترين .
 (٤٢) كتاب صفة القلوب ، ذكره في كتاب أدب النفس وأحوالها وهيئة تركيبها .

ما يظهر كان على معرفة بتركيب الجسم ، مما يدل على أنه درس شيئا من الطب ، ولعل ذلك السبب الذى من أجله سمى « الحكيم » .

مؤلفاته :

وقد حفظت المخطوطات كثيرا مما كتبه أبو عبد الله ، وإن لم يطبع من هذا إلا النزر اليسير . وهناك ما ورد ذكره من كتب ورسائل لا نعرف إلا أسماءها ، وهذه جملة كتبه ورسائله ، ما وجد منها بالفعل ، أو بالاسم . ويلاحظ أن أغلب هذه الكتب قصيرة ، وبعضها لا يتجاوز صفحات :

(١) الكتب الموجودة

- | | |
|--|---|
| (١) نوادر الأصول ، فى معرفة أخبار الرسول : مجموعة من الأحاديث ، طبعت فى إستانبول سنة ١٩٢٣ | بدمشق ، ولیدن . |
| (٢) رياضة النفس ، أو كتاب الرياضة ، أو حقيقة الآدمية ، ثلاث نسخ فى دمشق ، وإستانبول ، ومجموعة شسترييتى . | (٧) بيان الكسب ، نسخة بدمشق . |
| (٣) أدب النفس ؛ نختان : فى إستانبول ، وشسترييتى . | (٨) مسائل ؛ نسخة بدمشق . |
| (٤) مسائل التعبير ، نسخة فى ليون ، وقد نفرت فى | (٩) كتاب الفروق ومنع الترادف ؛ نختان فى إستانبول . |
| (٥) كتاب الأكياس والمقترن ، نسخة فى المكتبة الظاهرية بدمشق . | (١٠) شرح الصلاة ومقاصدها ؛ نختان : فى إستانبول ، وباريس . |
| (٦) جواب كتاب من الرى ؛ نختان : آيات عظيمة ؛ نختان : فى باريس ، وإستانبول . | (١١) الحج وأسراره ؛ نسخة فى باريس . |
| | (١٢) الاختيارات ؛ نسخة فى باريس . |
| | (١٣) الجمل اللازم معرفتها ؛ نختان : فى باريس ، ومانستر . |
| | (١٤) عرش الموحدين ؛ نختان : فى باريس ، وإستانبول . |
| | (١٥) الأعضاء والنفس ، وفيه تفسير |

Rivista Degli Studi Orientali
18 p. 320—3

أسلوب

جاء عند القشيري أن أبا عبد الله قال : « ما صنعت حرفا عن تدبير ، ولا ليتسب إلى شيء منه ، ولكن كان إذا اشتد على وقتي أتسلى به »^(١) . وهذا القول يتفق إلى حد كبير مع ما كتبه الحكيم الترمذي ، فهي كتابة لا تقوم على أسلوب منتظم (System) ، بل هي أقرب ما تكون إلى إفاضة القول في موضوع ، والاستطراد فيه ، مع الاستدلال عليه بحجج من القرآن والحديث ، وتأويل ذلك تأويلا يتفق مع رأيه . ومثل هذا النوع من التأليف كثيرا ما يسوده التكرار والاستطراد ، وهذه الخصيصة في الاستطراد والتوسع في الشرح ، هي التي جعلت أسلوبه حرا طليقا ، لا تعقيد فيه ولا غموض ، فإنه لم يحز لنفسه هذا التعقيد المقصود ، الذي كان يلجأ إليه مثل أبي القاسم الجنيد وأمثاله من الصوفية الأولين ، إذا ما استنشا الحارث الحاسبي . وقد يكون السبب في هذا ، أنه لم يتناول المسائل الميتافيزيقية أو الدينية العميقة ، ولكنه قصر نفسه على المسائل التعليمية والخلقية ، وأيا كان الأمر ، فإنه لم يصلنا من هذا النوع ما نستطيع أن نبنى عليه حكما ، وكل ما بأيدينا هو ما كتبه في هذه الأمور العامة ، التي لا يدور حولها الجدل والمناقشة .

وأكثر اهتمام الحكيم الترمذي ، هو تبين العلاقة بين الحقائق النفسية وبين الجسم الإنساني ، وربط بعض ذلك ببعض ، وهو على

(١) القشيري : ص ٢٦ .

٨٦٨ م^(١)، ولكن هذا لا يتفق مع ما جاء عند السبكي والذهبي، من أنه طرد من ترمذ، ورحل إلى نيسابور، وأخذ يدرس الحديث هناك في سنة ٢٨٥ هـ = ٨٩٨ م، وأنه ذهب إلى بلخ، واستقبل هناك بحفاوة، لموافقته إياهم في المذهب: «وأضاف الذهبي إلى ذلك أنه عاش نحو من ثمانين عاما». وعلى أساس هذه المعلومات يمكن أن نستنتج أن أبا عبد الله مات عند نهاية القرن الثالث الهجري، وأقرب ما يكون أن ذلك كان في حدود سنة ٢٩٦ هـ = ٩٠٣ م. أما ما ذكره بعض المؤرخين المعاصرين، من أنه مات في سنة ٣٢٠ هـ = ٩٣٢ م، فلا يقوم على أساس صحيح^(٢). وقبره معروف الآن في خرائب ترمذ القديمة، يقول بارتولد: «ونجد بين الأبنية في خرائب المدينة القديمة، ضريح الولي أبي عبد الله محمد بن علي الترمذى. وهذا الضريح من المرمر الأبيض. وقد ذكر بوسلافسكى أن هذا الأثر لا يفوقه «من حيث الصنعة والمادة» أى أثر آخر من الآثار القديمة، التي عرفت حتى الآن في هذه النواحي، ولم يبق هذا الضريح معاصرو الترمذى ولا يمكن أيضا أن يكون بناؤه قد حدث قبل القرن الرابع عشر الميلادى، بدليل الخط العربى النسخى الذى كتب على هذا القبر، وهو خط هذا العصر. وقد جاء ذكر هذا القبر فى تاريخ تيمور^(٣)».

(١) انظر H. Ethe, Catalogue of the Persian Manuscripts in the India Office Library 1, Column 293, quoting Dara Shikuh, Safinat al awliya fol. 85.

Brockelmann, G. A. L. 1. p. 199.

(٢)

Barthold, Turkestan down to the Mongol Invasion (٣)

(tr. H. A. R. Gibb) p. 75—76

والطريقة - كما جاء عند أبي نعيم والقشيري - أبو تراب عسكر بن حاصن النخشي (توفي سنة ٢٤٥ هـ = سنة ٨٥٩) ^(١) وأبو حامد أحمد ابن خضرويه البلخي (توفي سنة ٢٤٠ هـ = سنة ٨٥٤ م وعمره ٩٥ عاما) ^(٢) وأبو عبد الله أحمد بن يحيى بن الجلاء .

وقد سماه الذهبي « المحدث » ، ومن هذه التسمية ومن تتبع أحاديثه وشيوخه الذين حدث عنهم ، وأكثرهم موثوق به ، نستطيع أن نتبين أن أبا عبد الله اشتغل بالحديث والرواية ، واهتم بذلك كعادة أهل زمانه ، ولكنه لم يعم في هذه الناحية من العلم ؛ ومع ذلك فقد بقيت آثار واضحة من ذلك فيما كان يكتب في التصوف ، حيث كان يدعم بما عرفه من الأحاديث الحكمية الصوفية ، آراءه في التربية والطريقة ، وإن كانت هذه الأحاديث لاتقوم عند ناقد الحديث .

وقد ذكر لنا فريد الدين العطار ، أن أبا عبد الله تزوج وأنجب أولادا ، ويقص علينا هذه القصة : وهي أن أولاده سئلوا كيف كان حال أبيهم عند ما يغضب ؟ فقالوا : إننا نعرفه عند ما كان يغضب ، فإنه يكون أكثر حنانا وأشد عطفا ، كان يكف عن الطعام والشراب ، وينتحب ويقول : « يامولاي ، كيف أغضبتك حتى جعلتهم يغضبونني ، تبت إليك يامولاي ، فأصلح حالهم .

وقد ذكر بعض المؤرخين لوفاة أبي عبد الله أنها كانت في سنة ٢٥٥ هـ

(١) الرسالة القشيرية : س ٢٠ ؛ وحلية الأولياء : ج ١٠ ص ٢٢٠ .

(٢) الرسالة القشيرية : ص ١٩ .

وقد جاء عند السبكي ، أنه درس الحديث على جماعة من محدثي خراسان والعراق ، فذكر أباه (وهو ما يضعف رواية العطار بأن أبا عبد الله عاش يتيما) وقتيبة بن سعيد ، وصالح بن عبد الله الترمذي ، وصالح بن محمد الترمذي ، وعلى بن حجر السعدي ، ويعقوب الدورقي ، وسفيان ابن وكيع^(١) . وذكر الذهبي ما يماثل ذلك عن شيوخه ، وزاد الحسن ابن عمر بن شقيق ، ويحيى بن موسى ، وعتبة بن عبد الله المروزي ، وعباد بن يعقوب الرواجيني^(٢)

وإذا تتبعنا شيوخه الذين جاء ذكرهم في هاتين الرسالتين : رياضة النفس ، وأدب النفس ، وروى عنهم أحاديثه ، نجدهم هكذا : أبوه روى عنه أكثر من مرة ، حيث يقول : وحدثنا بذلك أبي رحمه الله ، وفي هذا ما يبطل ما ذكره العطار ، من أن والده مات وهو صغير ؛ وعبد الجبار ابن العلاء ، وسفيان بن وكيع ، وقتيبة بن سعيد ، والفضل بن محمد ، وعلى ابن حجر ، والجارود بن معاذ ، وإسماعيل بن نصر ، وإبراهيم بن المستمر البصري ، وعمر بن أبي عمر ، وأبو بكر بن سابق الأموي ، وعبد الكريم ابن عبد الله ، وعبد الله بن أبي زياد ، ومحمد بن سهل ، وصالح بن محمد . ومن تلامذته الذين رروا عنه الحديث : يحيى بن منصور القاضي ، والحسن بن علي ، وغيرهم من محدثي نيسابور ؛ ومن صاحبوه في التصوف

(١) طبقات الشافعية الكبرى : ج ٢ ص ٢٠ .

(٢) تذكرة الحفاظ : ج ٢ ص ١٩٧ .

وهو خبر سنين خطاه فيها بعد ، وقص لنا هذه القصة : « ذلك أنه كان عقد النية في أول أمره على الرحلة لطلب العلم في رقعة اثنين من إخوانه ؛ وفي أثناء ذلك مرضت أمه ، وقالت له : يا بني إني امرأة ضعيفة ، لا عائل لي ، ولا معين يعينني ، وإنك المتولى لأمرى ، فإلى من تكلمني وتذهب ؟ فنالت هذه الكلمات من نفسه ، وعدل عن الرحلة ، ومضى زميلاه في سبيلهما . ثم مضى على ذلك بعض الوقت . فبينما كان في إحدى المقابر يبكي بكاء شديدا ويقول : ها أنا ذا قد بقيت جاهلا مهملًا ، وسيرجع أصحابي وقد حصلوا على العلم ، إذا به يرى أمامه فجأة شيخا مشرق الوجه ، فسأله الشيخ عن سر بكائه ، فأفصى إليه بحاله ، فقال له الشيخ : ألا أعلمك في كل يوم شيئا من العلم ، فلا يمر عليك كثير وقت حتى تسبق إخوانك ؟ فأجابه إلى ذلك ، واستمر الشيخ على تعليمه كل يوم ؛ ومضت على ذلك أعوام . ثم عرف بعد ذلك أن الشيخ هو الخضر عليه السلام ، وأنه إنما حصل على هذا ببركة دعاء أمه . » وأضاف العطار إلى ذلك ، راويا عن أبي بكر الوراق^(١) ، أن الخضر كان يأنيه ليعلمه كل يوم أحد ، حيث كانا يتذاكران العلم ، ويتجاذبان الحديث .

فهذه القصص وأمثالها إنما هي أقرب إلى صنع الخيال منها إلى الحقيقة ؛ ومع ذلك فقد تحتوي على مواد في ثناياها ، لها قيمة في تكوين صورة عن حياته ، مادامت تعوزنا المعلومات الموثوق بها .

(١) هو أبو بكر محمد بن عمر الحكيم الوراق الترمذي البلخي . انظر الفشيري في الرسالة : ص ٣٦ ؛ وأبا نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء : ج ١٠ ص ١٣٧ .

مختلفة ؛ حيث كان الطريق الرئيس الذى يربط بلاد الصين وبلاد فارس
مختزقا بلاد الهند ؛ وهنا تلاقت الأديان والثقافات المختلفة ، فوجد
الجوسية بجانب البوذية ، بجانب أديان الهند وثقافتها ؛ ومن هذه الجهات
شقت النسطورية طريقها إلى الصين ، ومنها انتشرت المانوية فى الشرق ؛
كما كانت مجالا للغزو اليونانى ، فبلخ هى بكتريا اليونانية Bactria ، فكل
هذه العناصر المختلفة كان لها من غير شك أثر فى تطور التصوف الإسلامى
فى أول الأمر ، وكل هذا قد يساعد على تعرف عناصر التصوف ونشأته ،
الأمر الذى يعنى به العلماء فى العصر الحاضر .

مياة الترمزى :

ولا يعطينا المؤرخون الموثوق بهم ، أو الكاتبون القدامى عن التصوف ،
الإمادة قليلة ، ومعلومات مقتضبة ، عن حياة أبى عبد الله الترمذى ؛ فلانجد
فيها شيئا سوى أسماء شيوخه ، وسوى خبر نفيه من ترمذ ؛ وتركوا ذلك
إلى القصص والأخبار ، التى نجدها عند المتأخرين من كتاب الفرس الذين
كتبوا عن الصوفية ؛ وهى مع استحقاقها للنظر ، لا يمكن أن تقبل بدون
مناقشة وتمحيص .

فمن هؤلاء فريد الدين العطار الشاعر الفارسى المعروف ، الذى قيل إنه
مات وعمره مائة وخمس عشرة سنة فى سنة ٦٢٧ هـ = ١٢٣٠ م ؛ فقد روى
فى كتابه « تذكرة الأولياء » أن أبى عبد الله فقد والده وهو صغير ^(١) ؛

(١) تذكرة الأولياء (طبعة نيكسون) : ج ٢ ص ٩١ - ٩٢

التأثيرات الأجنبية في التصوف الإسلامي ، قد ترجع إلى هذه الأديان والثقافات ، التي كانت تسود في هذه النواحي الشرقية ، وإذا ما رجعنا إلى الدلائل التاريخية ، وأحصينا أعلام الصوفية القديمة ، نجد أن أكثرهم ينسب إلى هذه الأصقاع . ففي أثناء القرن الثاني الهجري ، نجد - تبعاً لما ذكره القشيري - أن شيوخ الصوفية الذين توفوا في هذا القرن أربعة : أحدهم ، وهو داود بن نصير الطائي ، عربي الأصل ، والثلاثة الباقون خراسانيون ، وهم : إبراهيم بن أدهم الذي يعتبر أبا التصوف الإسلامي ، من بلخ ، والفضيل بن عياض ولد في مرو أو سمرقند ، ثم شقيق البلخي من بلخ ، وإذا ما تقدمنا إلى النصف الأول من القرن الثالث ، نجد بجانب الشيوخ العراقيين وهم معروف الكرخي ، والحارث المحاسبي ، والشاميين ، وهم أبو سليمان الداراني ، وأحمد بن أبي الحواري ؛ ثم ذوالنون المصري من مصر - نجد في خراسان منصور بن عمار ، وبشرا الحافي ، وحاتم الأعمى ، من مدرسة شقيق البلخي ، وتلميذه أحمد بن خضرويه ، وأباتراب النخشي ، وفي النصف الثاني من هذا القرن نجد بجانب العراقيين : السري السقطي والجنيد - يحيى بن معاذ الرازي ، وأبا يزيد البسطامي ، والحكيم الترمذي .

ومن هذا الإحصاء الموجز عن شيوخ الصوفية الأولين ، يظهر لنا بوضوح أن أغلبهم كان من المشرق ، وهو الأمر الذي لا يمكن أن يمر المؤرخ عليه من الكرام ، إذا ما أراد تأريخ نشأة التصوف . وقد كان المشرق قبل الفتح الإسلامي ملتقى هاماً لثقافات وأديان

إن الشتاء عدو لانتقابه (١) فارحل هديت وثوب الدفء مطروح (٢)

وكانت ترمذ موطناً لعدد كبير من المحدثين والفقهاء ، منهم المحدث المعروف : أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى ، صاحب الجامع والعلل ، وكتاب الشئائل ؛ وقد تلقى الحديث على الإمام أحمد بن محمد ابن حنبل ، والبخارى ، وأبى داود السجستانى ، ومات فى بوغ قريبا من ترمذ سنة ٢٧٠ هـ = ٨٨٣ م أو ٢٧٥ هـ = ٨٨٨ م أو ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م (٣) . وقد كان أبو عيسى معاصراً لأبى عبد الله ، وكانا من بلد واحد وهو ترمذ ، ودرسا وكتبا الحديث ، إلا أنه لم يصل إلينا ما يؤيد تلاقيهما أو تدارسهما الحديث ، ولا يعد هذا غريباً ، فإن أبا عيسى كان من أهل الحديث والسنة ، وكان أبو عبد الله من الصوفية ، وقد أظهر آراء أدت إلى إخراجهم من بلده ، ومثل هذا من شأنه أن يبعد بين الرجلين .

المسرى والنهوف الإسلامى :

وقد لعبت هذه البلاد التى تقع فى الشمال الشرقى للدولة الإسلامية ، (خراسان وتركستان) دوراً هاماً فى الثقافة الإسلامية ، وكانت كمارجح بعض الكتّاب (٣) ، المهدي الأول للتصوف ؛ وفى الواقع أن كثيراً من

(١) معجم البلدان طبعة ليبزج : (ج ١ ص ٨٤٤)

(٢) انظر A.J. Wensinck in Encyclopaedia of Islam Vol. 4 p. 796, Brockelmann, «Geschichte der arabischen Litteratur, 1, 164, 199, Suppl. 1, 355—7.

R; Hartmann, Der Islam Vol. 6 p. 31

(٣) انظر

لببلاد القرس ، مجهول الإسم ، فى كتابه « حدود العالم » ، يصف ترمذ بأنها « مدينة زاهرة ، وسوق ختلان وشغانيان ، وأنها تنتج الصابون الجيد ، والخصر المجدولة الخضراء ، والمرائح »^(١) . وزعم المؤرخ الفارسى حافظ آبرو أن الإسكندر الأكبر قد أسس مدينة ترمذ ، وأنها كانت عند الفتح الإسلامى - كما جاء فى المصادر الصينية - مركزا للبوذية ، وكان بها اثنا عشر ديرا ، لزهاء ألف راهب ، وكان يحكمها ملك يدعى ترمزشاه ، ويحميها حصن قوى على ضفة النهر . وقد فتحها فى سنة ٥٧٠ = ٦٨٩ م موسى ابن عبدالله بن خازم ، واستمر على حكمها خمسة عشر عاما ، ثم خلفه بعد ذلك عثمان بن مسعود ، بأمر من المفضل بن المهلب حاكم الولاية^(٢) .

وقد وصف ياقوت بن عبدالله الرومى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م ترمذ بأنها « مدينة مشهورة ، من أمهات المدن ، رابكة على نهر جيحون ، من جانبه الشرقى ، متعلقة العمل بالصغانيان ، ولها قهندز وربط ، يحيط بها سور ، وأسواقها مفروشة بالآجر ، ولهم شرب يجرى من الصغانيان ، لأن جيحون يستقل عن شرب قراهم .

وقال نهار بن توسعة يذم قتيبة بن مسلم الباهلى ، ويرثى يزيد بن المهلب :

هبت شمالا خريقا أسقطت ورقا واصفرّ بالقاع بعد الخضرة الشيخ
فارحل هديت ولا تجعل غنيمتنا ثلجا تصفقه بالترمذ الرياح

(١) حدود العالم (ed. Minorsky) من : ١١٤

(٢) W : Barthold in Encyclopaedia of Islam, Vol. p, 793

مقدمة

كان الحكيم الترمذى ، الذى نشر له هاتين الرسالتين لأول مرة ، أحد أعلام الصوفية القدامى ، وشيخا من شيوخهم البارزين ، كان صاحب مدرسة صوفية عرفت « بالحكيمية » نسبة إليه ، و بقيت كتبه ورسائله أصولا معروفة فى الأدب الصوفى ، وأمّهات فى التربية الدينية فى هذه الأوساط^(١) ، وكثير منها لا يزال مخطوطا كما سنبينه ، وبالرغم من هذا كله ، لا يزال المعروف عن حياته قدرا يسيرا ، يحوطه كثير من الشك والإبهام ، حتى إننا لا نعرف على وجه التحقيق وقت وفاته .

اسمه وموطنه :

واسمه ، كما جاء عند المؤرخين وأصحاب كتب الطبقات ، أبو عبد الله محمد بن على بن الحسن بن بشر الحكيم الترمذى^(٢) . ولد فى أوائل القرن الثالث الهجرى (القرن التاسع الميلادى) بمدينة ترمذ ، وهى مدينة على ضفة نهر جيحون ، بإقليم ماوراء النهر ، وقد ذكر مؤلف جغرافى

(١) يقول أبو الفرج بن الجوزى المتوفى سنة ٩٧٥ هـ بصدد كلامه على الكتب المعتمدة عند الصوفية : « وقد صنف لهم أبو عبد الله محمد بن على الترمذى كتابا سماه « رياضة النفوس » ، قال فيه » تلبس إبليس : ص ٢١٠ .
(٢) الذهبى فى تذكرة الحفاظ : (ج ٢ ص ١٩٧) ، والسبكي فى طبقات الشافعية الكبرى : (ج ٢ ص ١٠) ، وأبو نعيم الأصفهاني فى حلية الأولياء : (ج ١ ص ٢٣٣) .

جميع الحقوق محفوظة

مكتبة الآداب الصوفية

al-Riyāḍah wa Adab al-nafs

كتاب الرّياضة و أدب النفس

للإمام أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي

al-Tirmidhi

عنى بإخراجه

الدكتور علي حسن عبد القادر

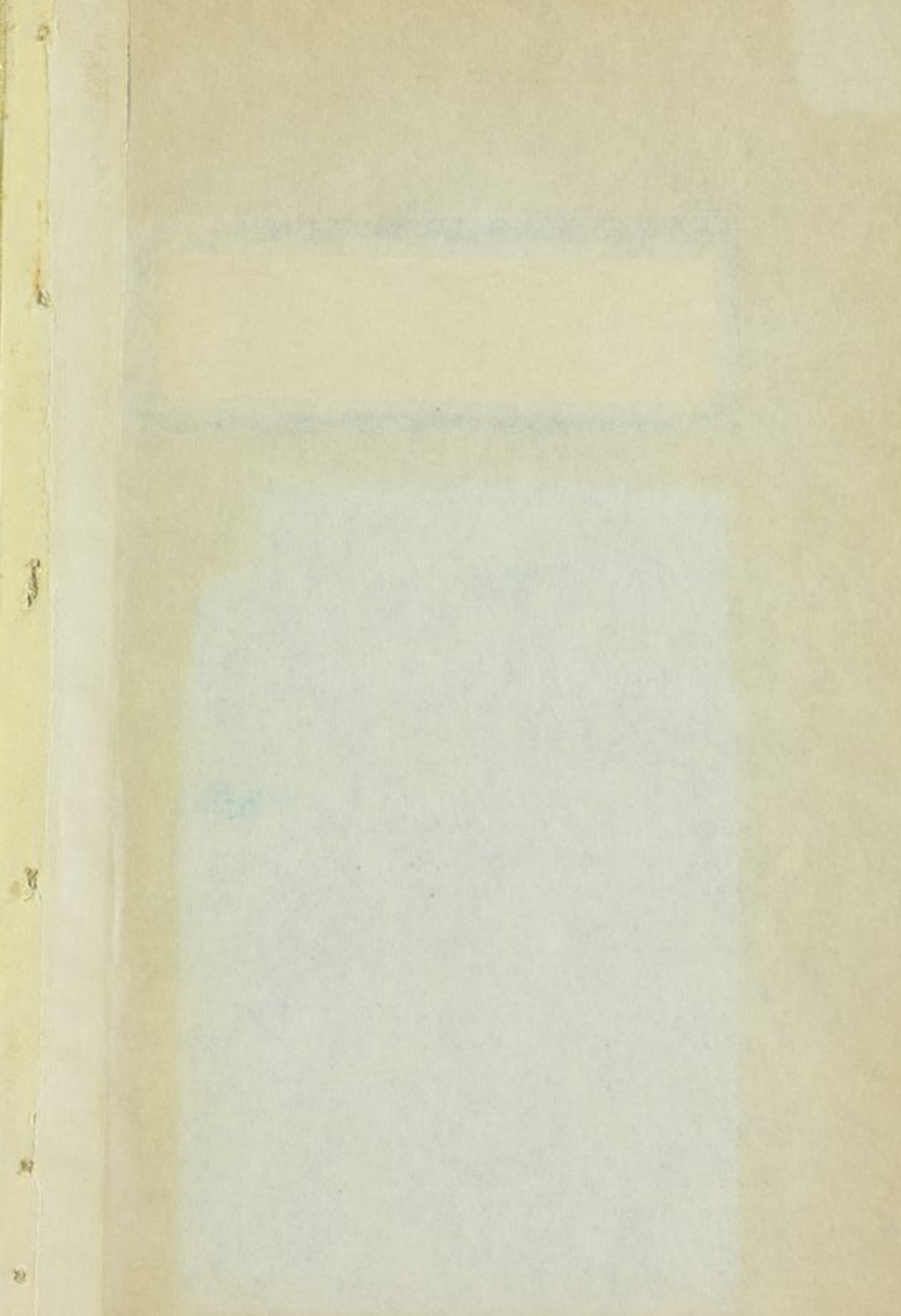
مكتبة المعهد الإسلامي في لندن

الدكتور أ. ج. آر بري

أستاذ اللغة العربية بجامعة لندن

١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

مكتبة جامعة القاهرة





a32101



004082416b

at-Riyāḍah wa. Adab al-naḥs 6/6

مكتبة الآداب الصوفية

كتاب الرياضة و أدب النفس

للإمام أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي

عنى بإخراجه

الدكتور علي حسن عبد القادر

سكرتير المعهد الإسلامي للثقافة في لندن

الدكتور أ. ج. آر بري

أستاذ اللغة العربية بجامعة لندن

A. J. Arberry

١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

تمت الطبعة الأولى في سنة ١٣٦٦ هـ